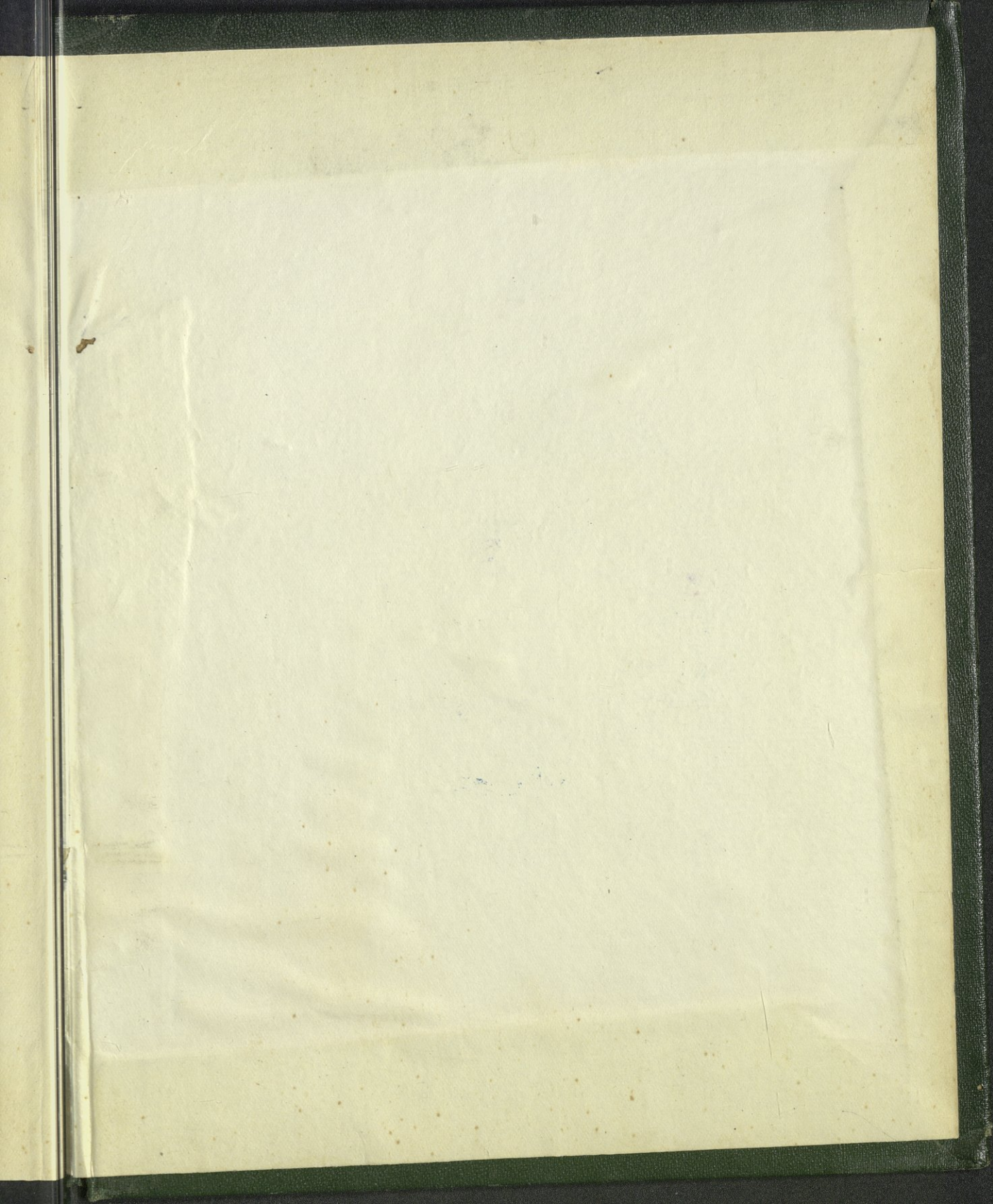
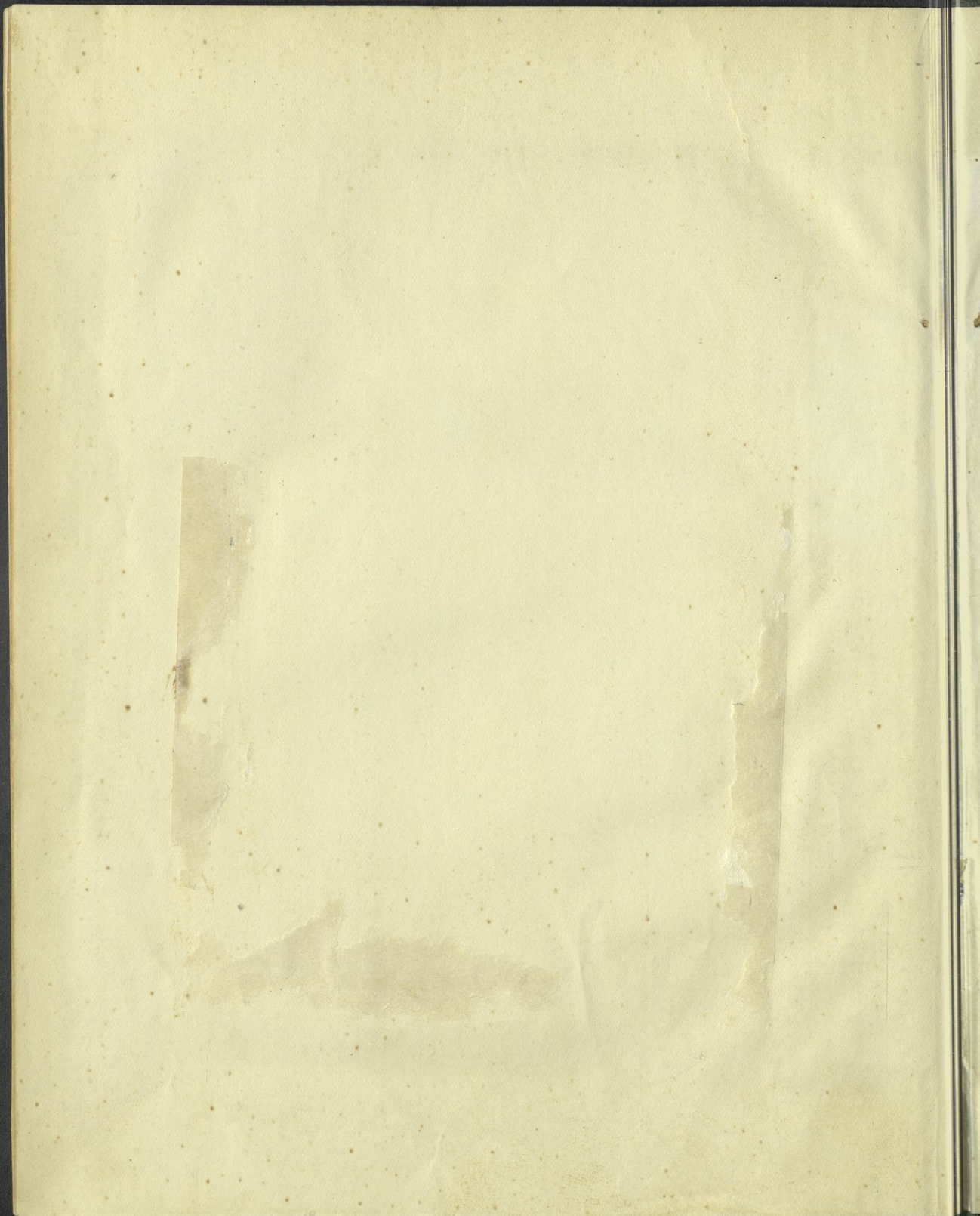
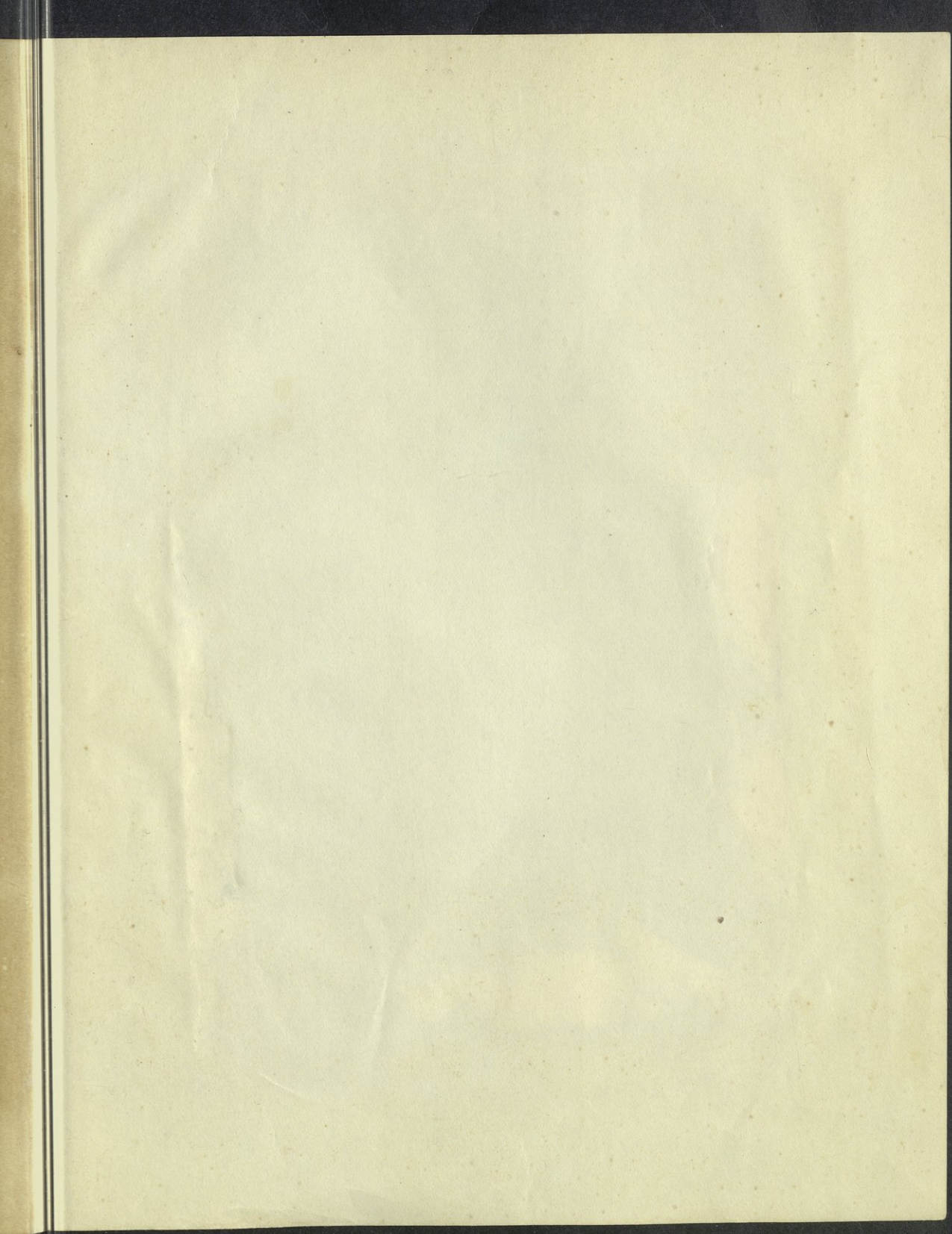


لهم

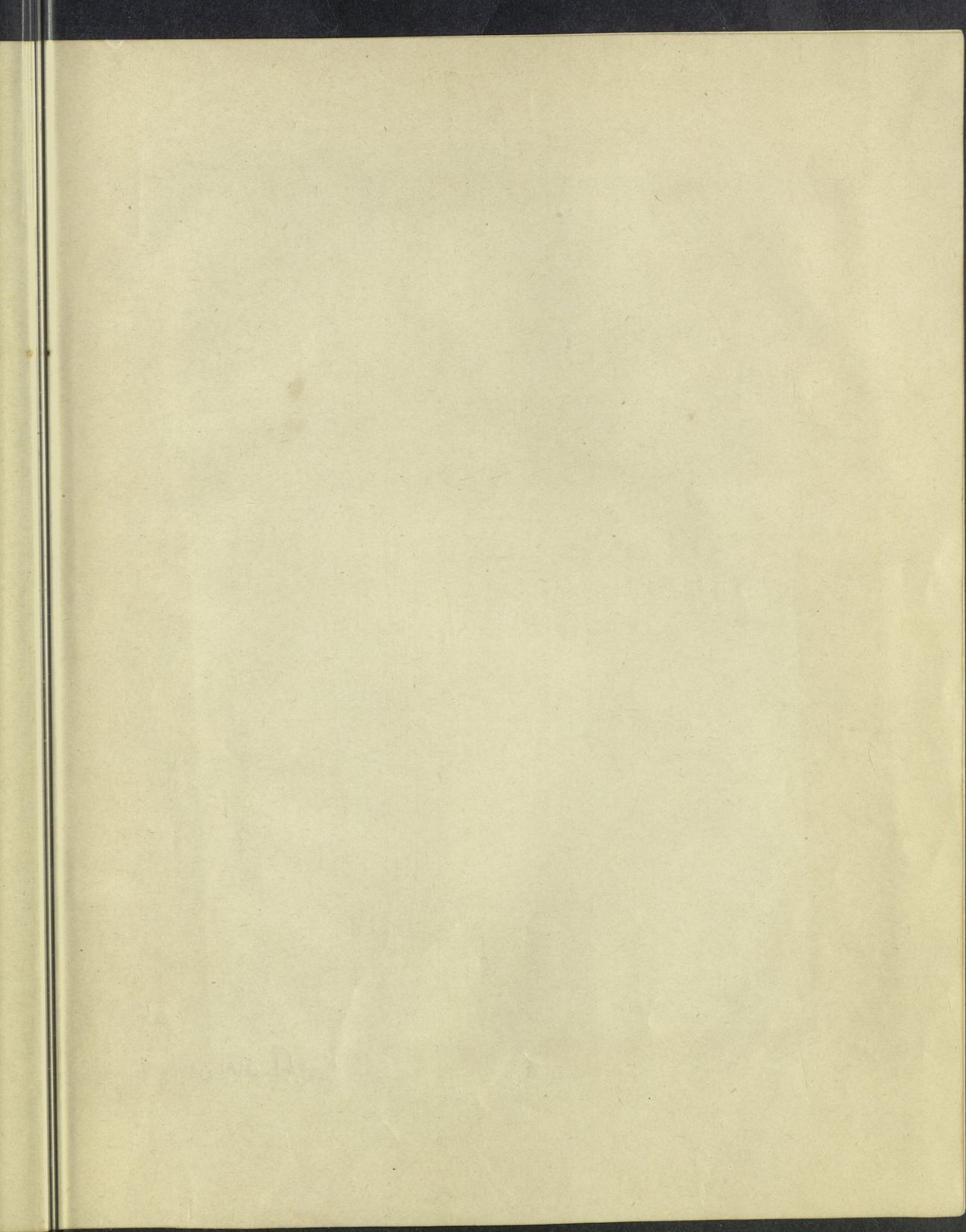
من اوراق الجبل







من اعماق الجبل



الى عائدة ، رفيقة العمر ،
هذه الاساطير من اعماق بلادي ،
اعتراف الخصب بفضل ينبوع .

صلاح

للمؤلف

ارجوحة القمر

مواعيد

398.2
L11m A
C.1

صلاح لبكي

من أعمدة الجبل

مع ستة رسوم

بريشة قيصر الجميل

منشورات دار المكشوف

بيروت - لبنان ، ١٩٤٥



الطبعة الاولى ، ١٩٤٥

جميع الحقوق محفوظة

مقدمة

ما احوج الانسان الى معرفة اساطيره ليدرك دخيلة ذاته ، ويتبين اصول ما يعيش فيها من عقائد واوهام ، لها سلطان خفي عليه ، تقوده برغمه الى عمل شيء او ترك آخر . والى التفاؤل بشيء والاقبال عليه . او الى التشاؤم بغيره والفرار منه . وهو في هذا وذاك لا يدري حقيقة ما يقوده الى ان يجد الخير هنا فيرغب فيه ، والشر هناك فينفّر منه . وانما يعلم انه تلقى هذه العقائد من ذويه ومجتمعه فتماسكت جذورها في نفسه حتى اتصلت بعقائده الدينية فاصبحت معها كلاً شاملاً لحقائق ايمانه ، يستعين باوهامه التي يرتاح اليها كما يستعين بالدين . ويستعين الدين على ما يحشى منها ، كما يستعين عليها اوهاماً من جنسها فيفزع الى الطلاسم والتعويذات . وربما لا يحفل انه في استسلامه الى تلك الاوهام يأتي اعمالاً ينكرها الدين ويجرمها على ابنائه .

ومع ذلك يجد نفسه ضعيفاً امامها ، قصير اليد لا قبل له برد هذه الارباب التي
تحدّر عليه سلطانها من تراث الاجيال المتعاقبة ، فاضعته لاحكامها بما فيها من
حيوية نابضة بالتقليد والحديث المأثور ، بعد ان حضنتها ازمة بعيدة ، وبلورتها
مخيلات متفاوتة ، قد تعود الى عهد الشرك والوثنية ، او الى عصور الاديان
الممزلة وما نشأ على جنباتها من اساطير اضيفت الى القديسين والاخيار
والملائك . والى الشياطين والجن والعفاريت . وهي على اختلاف بنايعها
الاساطير حيرة بالحفظ والعناية . فالشعب الذي اضع اساطيره ، جهل دخيلة ذاته ،
واضع جانباً عظيماً من تاريخه . هذا التاريخ الذي نستمع اليه على ابواب
الاسطورة ، كما يقول فكتور هوغو ، يحتل اليوم مقاماً رفيعاً في معرفة احوال
الامم ، واستكشاف بذور الفكر البشري . فان الاساطير منها ما ينشأ في
حضن المجتمع فيحمل في تضاعفه شتى عقائده وآرائه . ومنها ما يهاجر اليه
مع الشعوب الغريبة او مع التجار والسياح والجنود الراجعة من الحرب ،
فلا يلبث ، بمرور الزمن ، ان يكتسب حقوق المستوطن فيظهر في حلل
جديدة تلونها طبيعة الارض وعقلية ابنائها . وقديماً قيل ان فلسفة اليونان
استنبطت اصولها من اساطيرهم ، وان تكن منابتها الاولى زراعة الشرق في
حقول فينيقية وعبرانية ومصرية ، وآرية هندية . فلذلك يصح ان تتخذ
الاسطورة فكرة فلسفية تقود الى ما بعد الطبيعة باجائها الآلهة . والى محاولة

تمت تلك
الاسطورة
بفكره فلسفية

تفسير النظام العالمي لاشتغالها على الارباب المؤلفة من القوى الطبيعية . والى معرفة الخير والجمال بما فيها من تأليه الفضائل الاخلاقية كالحكمة والعدل والجمال . وكان الرواقيون يقولون بانهم وجدوا المبادئ العالمية في الاساطير . وذهب الاسكندريون هذا المذهب فارجعوا اصل الفلسفة الى تعليم الاسرار الاولى في مصر . وقال افلاطون في « غورجياس » ان الاساطير القديمة تتضمن عوامل الحقائق الكبرى . وهو في « الجمهورية » يؤثر ان يبدأ بها قبل غيرها في تعليم الاحداث ، على ان مغزاها حقيقي . والاحداث من غريزتهم ميلون الى هذا النوع من القصص الوهمي ، لانه يغذي مخيلتهم ، ويستثير شواغلهم الدقيقة . بيد ان افلاطون لم يسمح بان يلقنوا جميع انواع الاساطير كخرافات هوميروس وهزiod ، فان هذين الشاعرين شوها جمال الارباب والابطال بما اضافا اليهم من صفات مذمومة كالسكر والحياة ، والاستهتار بالشهوات . فمثل هذه الاساطير يسيء الى عقيدة الاحداث في الآلهة واعاظم الرجال ، بخلاف التي تصور الالهية خيراً وسعادة للبشر ، وتظهر البطولة باسمى معانيها .

وكان صاحب « من اعماق الجبل » وقعت في قلبه تعاليم افلاطون فجاءت اساطيره على الجملة مشبعة بفكرة الخير والجمال ، تزهو منها انوار لبنان حاملة الى العالم القديم رسالة الحضارة والروح والحب والسلام . ف« النغم الثائه » يرمز الى الحب الشامل يفيض به قلب لبنان فيزرع الحطب ،

وينبت العمران ، وتنبت الانسانية من تلك النفس المنفتحة على حد ما يسميها « برغنسن » ويعبر عنها ابداع تعبير . فاذا تاه النغم ، وتكاثفت المادة على الروح ، ذهب الخير من الناس ، وساد الشر والتحاسد والحراب . ولكن النغم يتيه ولا يبید فلا بد له من عودة يتجدد فيها الصراع بين المادة والروح لان المادة لا تنتقل من القوة الى الفعل ، من النقص الى الكمال ، الا بمحرك من الروح ، فهي لا غنية لها عنه وان تمردت عليه . وفي اسطورة « الشاعر والشيطان » نلمس حاجة المادة الى الروح ، حاجة الظلام الى النور ، فقد عاد النغم التائه من غريته وحط قراره في قلب شاعر من لبنان ، يعني اغنية النور ، ويعرض عن زخارف الشيطان : « فيهن الشكل والتراب وليس فيهن الروح . » ويجد الرمزية والتأثرية والتصوير المكعب من عمل الشيطان ، فاجتنبوه ! فالمدينة التي تقوم على المادة وحدها هي مدينة جوفاء : « لا زاوية فيها للروح وللحب المتصلين بينوع النور الازلي . » أليس المسيح روحاً محيياً ، وحباً شاملاً ، ونوراً ازلياً ؟ فالروح يحيا الانسان لا بالجسم ، وبالحب لا بالمادة تحف آلام البشر ، وبالنور يهدي الحائر لا بالظلام . فرسالة لبنان روح وحب ونور . واذا كانت المادة ضرورية لتخطيط الجسم وتشكيله ، فان الروح التي تتحد بالجسد وتحياه لا تدعه يربي عليها بجسمانيته ، فيقودها الى الشر ويستخدمها في شهواته . بل تغالب نزعات

المادة مستبسلة حتى تنتصر عليها فتسير بها الى الخير والفضيلة ، كما انتصرت
لبنانة في « بعل مرقد » فقمعت ثورة ماديتها بعد جهاد أليم يذكرنا جهاد
القديسين حين تساورهم التجارب . وقامت ترقص وبعل مرقد يعزف ويعني
لها « اغنية الحب الخالد » فارتفع بها الرقص عن ظلمة المادة الكثيفة ، فاذا
هي : « خصلة من نور تعالى الى ما وراء النجوم . » وكثير من الشعوب
القديمة كانوا يؤمنون بقداسة الرقص ، وانه يُدبّ الحياة في الارض فينبو
الزرع ، وبطيّب الحصاد . وكان الهنود خصوصاً يرون فيه فالاً حسناً لاختصاب
العروسين .

فعلى هذا النمط الحثّر تجري اساطير « من اعماق الجبل » متغنية بحضارة
لبنان وجمال ارضه وسبائه ، متصلة بقصص الماضين وعقائدهم دون ان تفقد
خاصة الاختراع . فقد اعطى صلاح لبكي لنفسه الحرية في اخراجها وتوجيهها ،
فجاءت صنفاً جديداً تطفو عليه روعة القديم وجلاله . وربما حوت الاسطورة اصول
اخبار وخرافات مختلفة المجاري ، لبنانية ومهاجرة ، فيجمع بعضها الى بعض ، ثم
يشق لها طريقاً غير طريقها القديم . فاسطورة « بعل مرقد » تذكرنا اوائلها باسطورة
بغاليون ، فقد نحت بعل لبنانة بازميله ، ونفخ فيها الروح ، واحبها وتزوجها ، كما
نحت بغاليون بازميله نثال فتاة جميلة فتعشقها ثم تزوجها بعد ان بعثت فينيس
فيها الحياة . على ان اسطورة صلاح لبكي لا تلبث ان تفارق الاسطورة

مسيحية الاسطورة عند المصريين

اليونانية لتتحي وجهة لبنانية ، مسيحية لا وثنية . وكذلك اسطورة « النعم التائه » فانها تشتمل على خرافة ادونيس وعشتروت ، وعلى خبر قاي وهابيل . كلاهما مرتبط بالآخر ، وكلاهما يسيران في طريق جديد . فنحن نعلم من التوراة ان الرب قبل مقدمة هابيل ، والى مقدمة قاي لم ينظر . فشق على هذا اعراض الرب عن قربانه ، فوثب على اخيه فاغتاله في الصحراء . ويفصل الطبري هذا الحادث فيخبرنا ان حواء كانت لا تحمل الا توأمين ذكراً وانثى . وكان الذكر يتزوج من شاء من اخواته الا توأمة ، فانها كانت لا تحمل له . فرغب هابيل في توأمة قاي لما هي عليه من الجمال . فضن قاي بتوأمته على اخيه ، وارادها لنفسه . ففناه آدم ، فابى ان يطيعه . فاشار عليه ابوه بان يقدم قرباناً للرب ، وان يقدم هابيل قربانه ، فايها قبل الرب . تقدمته ، كان احق باخته . فقدم كلاهما مقدمة للرب ، فنزلت نار بيضاء من السماء ، فاكلت قربان هابيل دلالة على قبوله ، وتركت قربان قاي فلم تأكله . فغضب قاي وأمضه ان يتخلى عن توأمته ، فقتل اخاه . اما صاحب « من اعماق الجبل » فيجعل من عدا قاي لـ اخيه صراعاً بين الشر والخير ، فقد كان لهابيل صوت رخيم عذب ، فاذا قدم قرباناً للرب سبح له مرتلاً : « فاصفت الارض والسماء وهرعت الطيور والاسود من كل صوب . » وكان صوت قاي كريهاً منكراً فاذا قرب للرب وسبح : « غامت السماء

وتجهت الارض ، واقلعت الطيور ، وانصرفت الاسود . « فحسد قاين هايل حتى
كاد يموت حسداً ، وزين اليه ان يعض عنق اخيه ليمتص النغم من عنقه .
فمات هايل محتقاً ولكن النغم افلت وتاه حتى استقر في حنجرة آدونيس ،
يفيض على لبنان عاطفة الحب الشامل ، ويبدع مدينة بيلوس وصيدون وصور .
ثم مات قاين : « فنبذت السماء روحه ، ولفظتها جهنم ، فحلت في جسد خنزير
غريب لم يكن للبنان عهد بمثله . وبينما آدونيس يؤدي رسالة الحضارة ، ويوحّد
بانغامه القلوب على الحب وعلى الخير ، فاجأ الخنزير وانقض عليه وصرعه . »
فتجددت مأساة هايل بتغلب الشر على الخير ، وافلت النغم ثانية ، وتاه ليجد
له مستقراً . واذا تغلب الشر على الخير يتيه النغم ، الا انه لا يموت .

وهذا النغم جدير بان يستوقفنا في قصة قاين وهايل . فاي فكرة
تحركت في اعماق ضمير الكاتب ، فاوحت اليه ان يبني اسطوره على
الغناء مخالفاً فيها ما حدثت به التوراة والاخبار ؟ ولعل هذه الفكرة
تعيش في باطن كل منا ، بل لعلنا نتكلم بها دون ان نأبه لحقيقة
معناها ، او نحاول التنقيب عن اصلها ونشوبها . فكثيراً ما نسمع غناء خشناً
مزعجاً ، فتتأذى من وقعته في آذاننا ، فننطق غفواً : هذا صوت قايني !
نشبه صوتاً بصوت ولا نعلم سبب هذا التشبيه . وقاين وقاين وقين اسماء
لمسمى واحد كما يقول الطبري . فكيف نشأت هذه الصورة المعنوية في اذهاننا

وليس في التوراة والإخبار ما يهينا اليها ؟ أتراها متصلة الاسباب باسطورة
 قديمة انقطعت عنا ، وخلصت اليها هذه البقية منها ؟ ولا يبعد ان تكون
 التوراة اساساً لتلك الاسطورة بما فيها من علاقة قان بالصوت والغناء . فان
 الكتاب المقدس يخبرنا ان قان هو جد الحدادين وجد اصحاب اللهو والعزف
 والغناء . فمن سلالة يوبل بن لامك ابو كل عازف بالكنارة والمزمار . واخوه
 توبل قان اول صيقل لجميع المصنوعات النحاسية والحديدية . فنحن امام
 صناعات صوتية ترجع باصلها الى قان ، وهي الحدادة والعزف والغناء . يضاف
 الى ذلك ان اسم قان نفسه مرتبط المعنى بهذه الصناعات . فلو عدنا الى مادته
 في المعاجم العربية لوجدنا ان القين هو العبد والحداد ، وان القينة هي
 الائمة المغنية . ويسمى مقيّناً من يزين القيان ويدبرهن .
 ومعلوم ان العربية والعبرانية شقيقتان لاهم سامية بائدة ، فلا بدع ان يقع
 بينهما تشابه في الاوضاع اللفظية ومختلف مدلولاتها . اوليس غريباً ان يكون
 هابيل المقتول يعني الموت والشكل في مادته العربية ؟ يقال : هبلته امه اي
 شكلته .

وعلى هذا فقد يجوز ان تكون الاسطورة القديمة متألفة عناصرها من
 لعنة الله لقان ، ومن اصوات مطارق الحدادين متحدة باصوات المغنين ،
 فاخرجت لقان صوتاً منكراً . ثم ما لبثت ان انقطعت مع العصور ،

وبقي الصوت المزعج قائماً متنقلاً حتى بلغ الينا ، فاخذناه ارثاً عن الماضين لا
ندري له سبباً . فجاء صلاح لبكي ينبهنا اليه في اسطوره . ولطالما كانت
الاساطير مفسرة لكثير من العادات والعقائد والاحكام عند الشعوب .

ونرى ان اضافة الصوت الجميل الى هابيل لا تقتصر على المقابلة المجردة
بينه وبين أخيه ، بل تتعداها الى ابعد من ذلك . فقد كان هابيل راعي
غنم ، كما تقول التوراة . وكان تغنى الشعراء بصوت الراعي وشبابته وهو
يسوق القطعان في الاودية والجبال . وللادب اللبناني خصوصاً آصرة عريقة
على الراعي المغني ، فمن الطبيعي ان تحيا بذورها في نفس صاحب « من
اعماق الجبل » وهو شاعر من لبنان ، فيلهمي السحر في حنجرة هابيل ، وتغبط
سريره اذ سقط زرعه في وادٍ غير جديب .

ونحن وان خصصنا بالذكر ثلاث اساطير : النغم التائه ، والشاعر والشيطان ،
وبعل مرقد ، فلا لانها استبدت بالروعة دون سواها ، بل لانها سارت
متضافرة في اتجاه مجتث ، مع ان اخواتها الباقيات لا تقل عنها جمالاً واغراء .
وفيها ايضاً لبنان بمضارته وطبيعته . وفيها فكرة الخير والسعادة كما ارادها
افلاطون .

بطرس البستاني

الغيم الثاني

من اعماق الجبل

عندما قتل قايين هابيل ، لم يفعل ، كما ظن المؤرخون ،
لأن الرب قبل قربان هابيل ولم يقبل قربانه . فقد كان بوسع
قايين ان يقدم للرب قرباناً من خير ما تنبت الارض وهي بعد
في اول عهدھا بالخصب فيقبله الرب . ان دوافع الاثم الاول
لأعلق بالنفس البشرية مما توهم المؤرخون .

كان الاخوان يجتمعان كل اصيل بعد ان يفرغا من اعمالهما ،
فيقربان القرابين للرب وينشدان في تسبيحه الاناشيد . فكان
هابيل اذا غنى اصغت الارض والسماء وهرعت الطيور والاسود
من كل حذب ومن كل افق تسمع الى اطرب نغم عرفته
الارض والسماء . فاذا ارتفع صوت قايين غامت السماء وتجهمت
الارض واقلعت الطيور وانصرفت الاسود مبتعدة مزجرة .

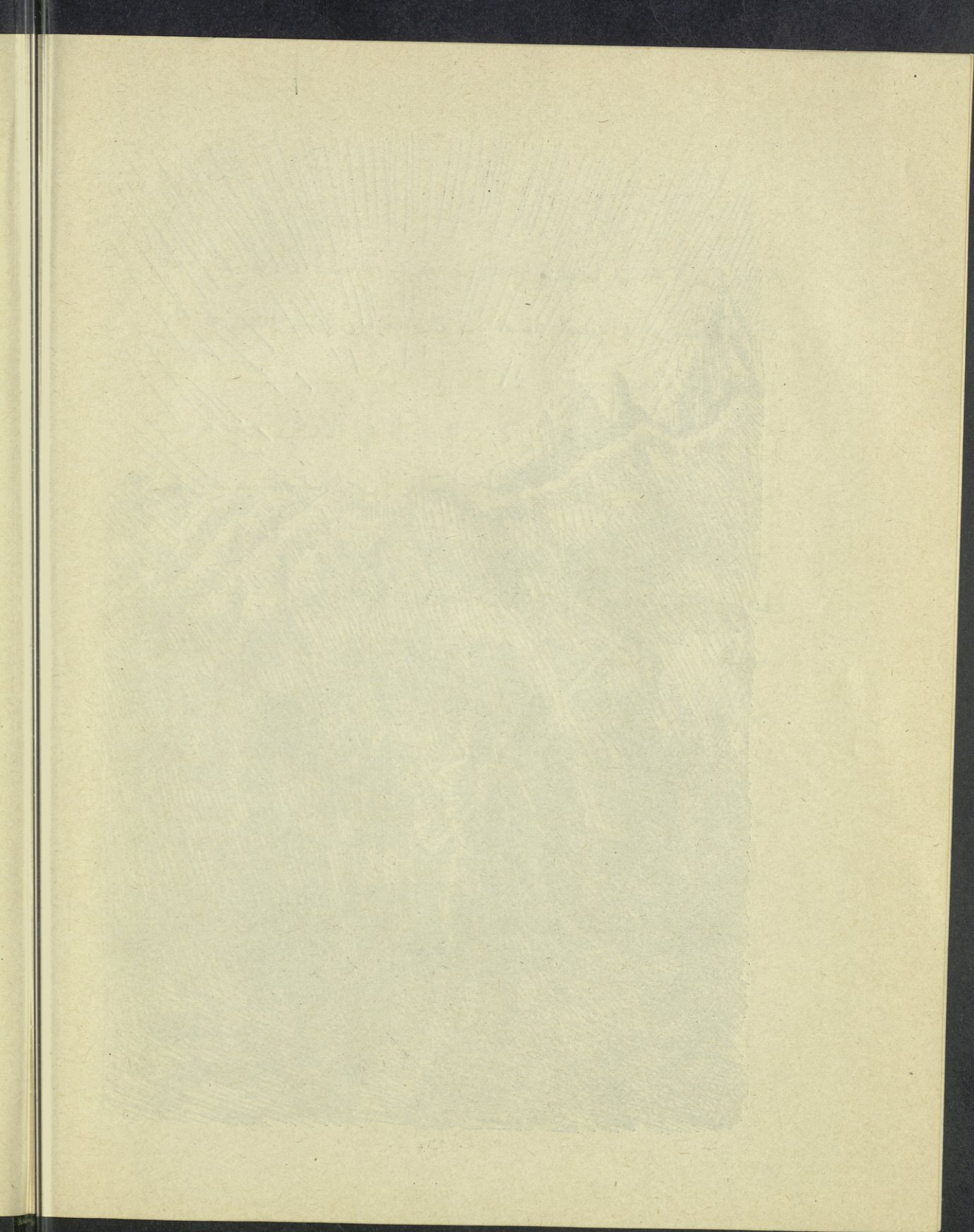
وكان قايين يموت كل يوم حسداً ، ويقرب القرابين طالباً
من الرب ان يهبه صوتاً رخيماً عذياً كصوت اخيه . ولما طال
الامر ولم يظفر اقبلت عليه بنت تلك الحية التي وسوست لأمه ما
وسوست واغررتها بما اغرت ، فقالت له : ما بالك تستنفد كل ما
تجنيه يدالك قرايين لله ؟ ان النعم الذي يرتفع من حنجرة هابيل
واحد احد في الارض والسماء ، والرب الاله لا يستطيع ان
يهبك اياه الا ان يمنعه عن اخيك فتدبر انت امرك .

وفي اصيل اليوم التالي بينا هابيل يُرقص الافلاك على نغمه ،
جاش الحسد في صدر قايين فانقض عليه وعضه في عنقه يريد ان
يتمص منها اصول النعم ، فصرع المغني ، واما النعم فقد افلت .
وظل هذا النعم تأثراً هائماً على وجهه . فاذا مر ظله على فم
« اورفه » روض « اورفه » السباع على وقع انغامه ، وارقص
النبات وحرّك الجوامد . واذا لامس صدهاء اوتار العود بيد

« امفيون » هبت الحجارة مطاويع من مقالعها وارتفعت مدناً
رائعة الحسن . واليشعيا نفسه ما كان يفيض بالنبوءات الا اذا
احسه مرفراً من حوله .

غير ان هذا النغم ما كان ليجد له في الارض وما فوقها
مقراً . فتاه طويلاً حتى مر يوماً بـ « افقا » فاذا عند النبع فتى من
لبنان يفيض قلبه حباً بالسماء وحباً بروعة المكان . فحوم وحل
فيه . واحس ادونيس انه صار شخصاً آخر . احس انه صار نغمًا
منسجماً . فاذا سار سارت الطير والسباع واشجار الارز في
موكبه عالقة بوقع اقدمه . والتقى ذات صباح بعشثروت ، تلك
الصبية التي طالما حن اليها قلبه . وما ان وضع يده على كتفها
حتى جلببها الشعاع يجلبابه وجرت الرقة في اعطافها . فراعها ما
رأى وفر هارباً في الجبال ودنيوات لبنان تتبعه وتكتنفه . وشاع
الخبر فهب الشباب وهبت الصبايا من انحاء الجبل بالهدايا ،





هازجين راقصين ميممين « افقا » علمهم يحظون بما حظيت به
عشثروت او علمهم يرون ويسمعون ، فترتفع نفوسهم الى ابعد من
هذه الشمس وتلك النجوم .

وكانوا يسمعون وكانوا يرون وكانت نفوسهم ترتفع وقلوبهم
تهتز بعاطفة من الحب الشامل . واذا هم ينعمون بمدينة ما
عرفت الدنيا مثلها من قبل . واذا يبيلوس واذا صيدون واذا
صور تحمل الى اقاصي المعمور ، الى الذين لم يروا والى الذين لم
يسمعوا فيضاً من خيراتها ، وفيضاً من حبها ، وفيضاً من انسانيتها .
غير ان روح قايين التي نبذتها السماء ولفظتها جهنم حلت في
جسد خنزير غريب لم يكن للبنان عهد بمثله . وبينما ادونيس
يؤدي يوماً رسالة الحضارة ويوحد بانغامه القلوب على الحب
وعلى الخير فاجأه الخنزير وانقض عليه وصرعه .

ولم يفد لبنان بعد ذلك ان نبيع افقا كان يتحول كل سنة

دماً صبيهاً حزناً على ادونيس ، وان عشتروت ماتت جزعاً عليه ،
وان الصبايا صرن يصعدن باكيات نائحات الى افقا يمرغن الجباه
في تراب الارض المقدسة . فقد تهدمت الهياكل وسقطت المدن
وتسلط الفاتحون على البلاد وعم الدمار ولم يسلم من ذلك العهد
الميمون غير ذكره وغير اللوعة عليه يتوارثها الخلف عن السلف
ويتحدث بمعجزاته العلماء .

اما النعم فقد حل بعد ذلك في طائر يعشش في صدر
الشمس حيناً وفي فم الميزاب احياناً . فاذا رفرف فيما هو يهيم
في فضائه ، فوق وادي النيل ، تدفق النهر واخصبت الارض
وارتفعت الاهرام وامرعت الحضارة .

غير انه لسلب لا يزال مجهولاً تخلى النعم عن الطائر
وتلبث بالجلب فعدا الناس يحسون نحوه بعواطف تختلف بين
الحب والاجلال فيجعلون مرة من وجه الحجر الها ، ومن حرمون

الها ، ثم يغمرهم هذا الانسجام الشائع في انحاء لبنان ، فاذا هو
« من مرمى الثلج الى فقش الموج » اله في نظر القوم يحفظهم
ويغلق لهم ويروي ما في نفوسهم من شوق الى الجمال .
وتشهد افقا كل يوم ان النعم لا يزال متحفزاً ليحل من
جديد في قلب فتى من لبنان يتوفر له ما توفر لادونيس من
فطرة طيبة وشغف بالجمال . وحينئذ يغمر الحب بفيضه الدنيا
ويغلب الحديد ويغلب النار ، ويعود الى الجبل سالف عهده من
العز .

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله الطيبين
الطاهرين
والسلام
والحمد لله رب العالمين

طابق و سمين

هذا عتيق التُّقط صغيراً في عشه ونشأ في هذا القفص الحشبي
وتلقن الغناء من اشهر عتيق في الجوار . وكانت الايام والليالي
تنقضي وهو ناعم البال ينظر من خلال قضبان قفصه فيقع
بصره على بستان صاحبه . ثم اذا سرح البصر بعيداً لا يرى من
الدنيا غير هذا الجبل القائم هناك في الناحية الثانية على ضفة
الوادي .

ولشد ما كان يعجب عندما يسمع من بعيد تجاوب غناء
الحساسين في الحقل ، او عندما يرى حسوناً برياً يقع من السماء
على الشبوق المنتصب في طرف البستان .
اين تعيش هذه الحساسين ، ومن اين تأتي بالقنب ، ومن ترى
يقدم لها قدح الماء ؟

و ذات صباح بكر صاحب العتيق فعلق القفص ومضى
لشأنه .

وما هي الا ان وقع حسون على رأس الشبوق .
— مرحباً ، عم صباحاً !

— اهلاً وسهلاً ! من اين انت آت ؟ لقد سرفني كثيراً ان
رأيتك تسقط من ايام على هذا الشبوق فترسل اغنية ثم تذهب
عندما ترى صديقي صاحب الدار . قل لي لماذا ذهبت ؟
— بل كيف صرت انت الى هذه النهاية ومن وضعك في
هذا السجن ؟

— في هذا السجن ! اين ترى السجن ؟
— اين اراه ؟ وما هو هذا المكان الذي تعيش فيه ، اليس
هو سجنًا ؟

— من قال لك ذلك ؟ هذا هو بيتي لا اذكر الا اني وجدت

فيه منذ ما وجدت . انه جميل وانا فيه انعم بجميع ما احتاج اليه
من طعام وماء . واغني على هواي ، ساعة ما اشاء . كيف !
افليس لك انت منزل جميل مثله ؟
— كلا .

— مسكين انت ! ومن يقدم لك القنب والماء ؟

— انا لست بحاجة ان يقدمها لي احد .

— افليس عندك قدح مثل هذا تشرب منه ؟

— كلا .

— مسكين انت ! ان قلبي لينفطر الماء على مصيرك !

أوما لك صديق يملك مثل بستان صديقي ؟

— كلا .

— ما اتعسك ! كيف تشرق عليك اذن هذه الشمس ؟

— انها تشرق ...

— عجباً لها ولك !

— عجباً !

— انني حزين من اجلك . أفتحب ان تكون معي وان يكون لك منزل مثل منزلي وبستان صديق مثل بستان صديقي ؟ دعك عندي .

فارتفع حسون الحقل في الهواء ورسم في الفضاء دائرة كبيرة ، ثم عاد فنزل من جديد على اعلى غصن في الشبوق وارسل أغنية فيها انين من خير السواقي ، واللوان من شعاع الاصيل ، ورائحة من زهور الحقل ، وعمق من اغوار السماء .
فبهت حسون القفص وقال :

— من علمك هذا الغناء ؟

— علمنيه الفضاء والرحب والربيع الطلق . علمتنيه الينابيع والسفوح والغابات ، وترنمت به على مسمعي اعالي الجبال والسهول

والاوداء . علمنيه بيتي انا .

— وهل يحسن غيرك هذا الغناء ؟

— جميع الحساسين .

— وهل لهم كما لك انت بيت فيه جبال وسهول وسفوح

وينابيع ؟ وهل هذه الاشياء التي ذكرت تعلمهم هم ايضاً الغناء ؟

— ان بيتي هو بيتنا جميعاً ، هو بيتك ايضاً .

— انك لتهزأ مني وتذكر لي اشياء لا وجود لها .

— ماذا ! افلا تعرف الفضاء ؟

— كلا ، فما هو الفضاء ؟

— انظر الى فوق من خلال قضبان سجنك ، ان بصرك ليظل

دائم الانطلاق ، هذا هو الفضاء ، مسرحنا نحن اهل الجناح ،

ومسرح الطيب والنسيم ، مسرح النور ، بجمال الشمس والقمر

والنجوم . نظير حتى نتعب ولا نصل الى آخر الفضاء . ويسري

الطيب حتى يتجاوز الغمام ولا ينتهي الى حد . ويسيل الشعاع
ولا يعرف احد الى اين ينفذ الشعاع . الفضاء قرار اغانينا وما
ابعد واعمق هذا القرار ! انا لا اعرف ابعد غوراً منه غير فؤادي
عندما تقف الحسونة على شمع البلوطة في اوائل الصيف .

— لا افهم ما تقول !

— وهل تعرف الينابيع ؟ انك لا تعرف الينابيع . عندما
ينظر الجبل الى السنابل والازاهير ايام القيظ تنطلق المياه من
صدره فتخضوضر السهول ، وينبت العشب في السفوح ، وتجري
المياه مرثمة بيضاء نقية فوق الحصى . ونشرب نحن . نشرب اغنية
الماء وهيام الجبل . وزف نحن فوق الزهور فتعطر اطيابها حناجرنا .
ثم نأوي الى الغابات . انك لا تعرف ما هي الغابات ، ولا ما
هي الظلال ، ولا ما هو تمايل الغصون وحفيفها . الغابات بما
فيها من ظلال وحفيف وتمايل هي الف نغم في نغم ، والف صلاة

في صلاة ، وراحة جامعة . حركة دائمة وغناء دائم . هي علمنا في
الليالي تنسكب روحها في صدورنا وتنتشر مع اغانيها .
فتعال ، تعال معي !

— اف لك ، ما اخالك الا محدثي عن عالم لا وجود له الا في
خيالك . ان هو الا شوق في اعماقك تتصوره حقيقة ، ورغبة
تحسبها واقعة . ولو ان لك مثل ما لي وكان عندك مثل ما
عندي : بيت وقنب وفير ، وقدر ماء ، وصديق يعتني بك ، لما
كان لهذه الاشياء التي سميتها فضاء وينابيع وغابات وسهولاً
وجود ، فأقم انت عندي . اني لأبعد بالواقع منك مراساً .
فاطرق حسون البر ثم نظر الى صاحب القفص وقال :
— أفليس لك عينان واذنان ؟

— بلى ، ولكنك انت ترى بعينيك ما لا وجود له وتسمع
بأذنيك اصداً ما يخلج بصدرك . ان جوعك وعطشك هو الذي

يمثل لك هذه الصور .

فضحك حسون البر طويلاً وانطلق في الفضاء يملأ عينيه
بالنور والالوان ، واذنيه بالاغاني المتصاعدة من كل حدب ، ويشم
مواكب الطيب الهائلة عند الافق .

ومزت الايام والليالي واتيح لعصفور القفص ان ينطلق يوماً
فامعن طيراناً في فضاء هاله منه انه لم يصل فيه الى حد ، وسقط
على غاب ارتاع لعظمته ، فلم ينعم منه بظلال ولم يأنس الى
حفيف . ومر بينبوع فما استساغ مذاق مائه ، وقفل في المساء
راجعاً الى قفصه .

الشاعر والسِّطَان

كان الشاعر يترك المدينة في فترات متقطعة من الزمن ويعود
الى قريته القائمة في السفح المطل على « الجعاني » ، ويقضي ايامه
في الجبل متنقلاً وحده في الحقول المجاورة للقرية يأنس بالطبيعة
ايناس غيره بالناس ، ويحس ان نفسه تكتنز جمال الصخور
الجرداء وعطور الازاهير وهواء الصنوبر والنسبات النقية
المتدحرجة من اعالي الجبال المعممة بالثلج .

(وكان يستهويه ، اكثر ما يستهويه ، مكان هنالك في الوادي
يقال له البريصة ذكرت له حكايات جدته وهو بعد صغير انه
كان أهلاً بالجن ، يتنقلون بين اجباب البريصة ، يهزأون من
المارة ويروونهم . وان قبائل الجن هذه ترحلت بعد ان شيدت
الكنيسة وراح صوت الجرس يدوي صباحاً ومساءً في الوادي .

غير ان نساء القرية ما زلن حتى اليوم يشددن على اولادهن الا
يتوغلوا في البريصة اذا ما ذهبوا لنزهة او للعب ، ويضرعن الى
شبابهن ورجالهن ان يجتنبوا المرور ليلاً في تلك البقعة الملعونة .
ومن يدري ، لعل بعض الجن ما يزالون يحنون الى هذا الوطن
فيعودوا او يعود منهم واحد اليه ساعة التخلي . أليس ان الاب
يعقوب شاهد من زمن غير بعيد في محل من هنالك جنية ملتهبة
الرأس تقيم في جب من السنديان فهزأت منه ، وكادت تخرجه
عن رصانته لولا انه استعان عليها بالصليب ؟

والجبل في مقابل البريصة ينبثق من الضفة الثانية على
شكل حائط جبار كأن ايدي الجن قد رفعته من حجر واحد ،
وحفرت في وسطه مغارة توصل اليها طريق ضيقة منحوتة في
الصخر يكاد لا يحسن سلوكها الا من يقلد الجن مشياً وخفة ،
في تلك المغارة المتسربة بعيداً تحت الارض من ناحية الشرق

كان يجلس الشاعر ، (يرتل قصائده ويسبح بعد ان تستحم نفسه
 بالجمال المتدفق من روعة الاساطير ومن رهبة المكان)
 وفيما هو يردد يوماً قصيدة له تتغنى بنور لا يغيب ، اجل
 واروع وابقى من جميع انوار لبنان في اصباحه وعشاياه ، اذا في
 مدخل النفق من المغارة شخص تقوم جثته على ساقين قصيرتين
 من فوقهما بطن ضخمة يكاد ان يكون مستقلاً بذاته منفصلاً عن
 الجسم . وتتصل بمنكبيه ذراعان قصيرتان في طرف كل واحدة منهما
 يد سميكة مجزوءة الانامل تستريحان على سطح البطن . وتحمل
 هذه الجثة الشوهاء رأساً كبيراً أقفرت ناصيته من الشعر فظهرت
 الصلعة حمراء كأن ناراً أبدية قد لوحتها . له عينان يقدهج منها لمعان
 اسود وتسترسل من تحت الحدين النائئين حية اختلط اسودها
 بأبيض وسخ . قال القادم : انا الشيطان .
 فتذكر الشاعر الاب يعقوب . ثم فكر ان يصمد لهذا اللعين :

— وانا انسان من هذه المحلة احب الجمال واحب ...

— لا تتعب نفسك ! انا اعرفك جيداً واعرف اباك وجدك
وجد جدك . قوم طيبون . ولكنكم فقراء . لم يخلف لك اهلك
غير اسم عريض . ولكنك انت تفضل آباءك في اشياء كثيرة .
وانفرت شفتا الشيطان عن ابتسامة ساخرة :

— انا مسرور منك . لقد رأيتك من زمن تحت ، في منعطف
الوادي عند الجسر مع صبية حسناء . ما اجملها ! ما اجملها ! اي
وحي ، انا مسرور منك . ورأيتك مرة في ليلة قراء على سطح
يشرف على البحر . لقد كنت قبالتكم في الماء . وكنت انت ترقص
في لباس اسود ابيض ما صنع الانكليز . انك تحب النساء وتحب
الترف ، فانا مسرور منك . ولقد فكرت ان اعينك على امرك
شرط ...

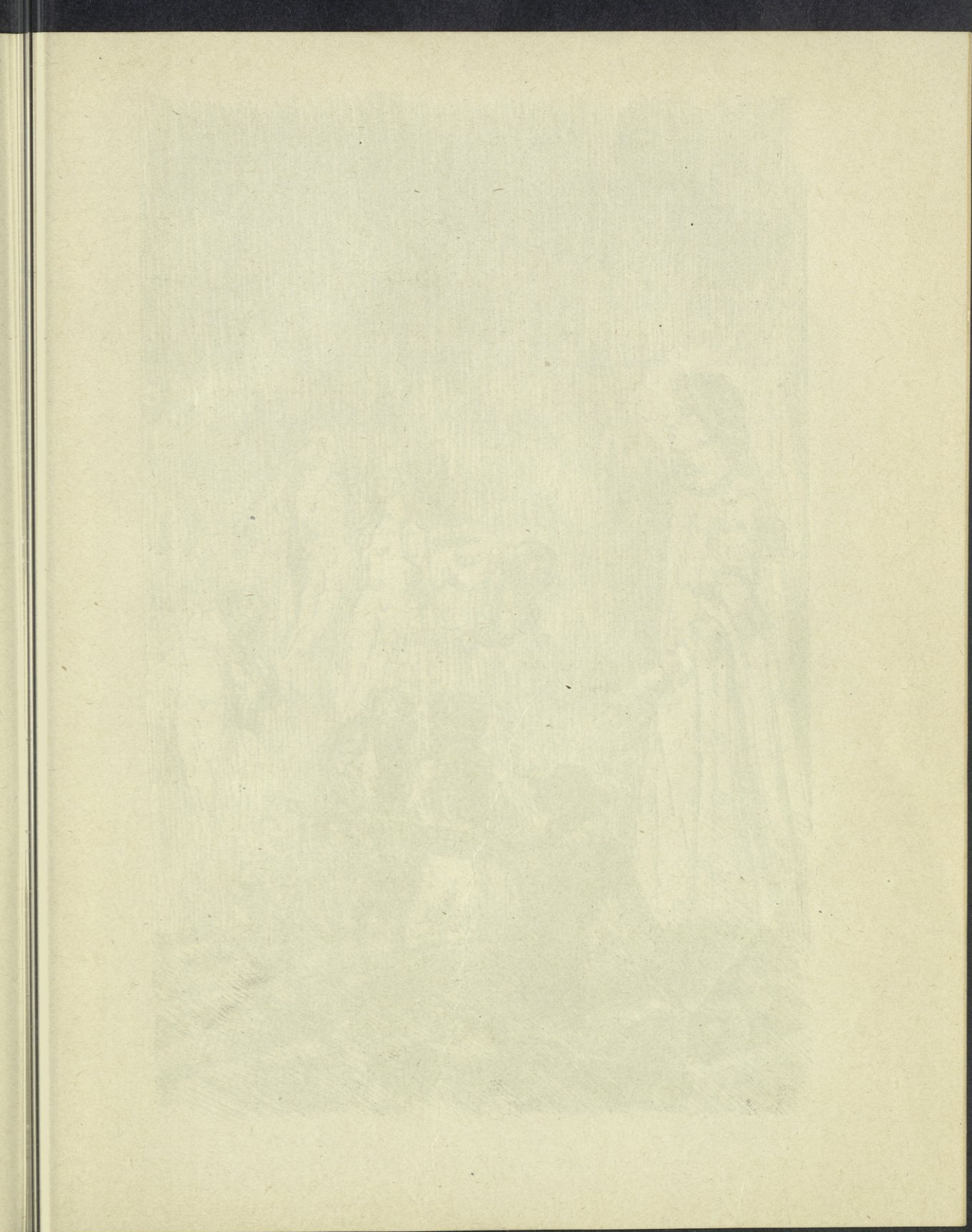
— شرط ماذا ؟

— شرط شيء بسيط • شرط ان تساعدني انت • سمعتك
منذ هنيهة تتغنى بنور لا يغيب اروع وابقى من اي نور •
وانك لتحس خصله تشع في اعماق كيائك • فأنت من اجل ذلك
انسان والذين يشعرون بتألق هذا النور يرتفعون ويرتفعون الى
ابعد من هذه النجوم • • • فاسمح ان امد يدي الى قلبك وان
اتلمس خصلة واحدة منه وانا اعطيك بعدئذ ما تشاء • ان بوسعي
ان اعطيك ما تشاء • • • لقد كنت اعرف هذا النور ، بل كنت
انا نوراً منه ثم اضعته • وانا منذ ذلك الحين افتش وافتش فلا
اراه • يمر امامي فلا اراه • واحس انه في قلبك ، في قلب الانسان
الحق • ولا اراه •

— مع ان كثيراً من الناس ، بل امماً منهم تجندوا لك
ووهبوا انفسهم •

— نعم ولكنهم ما كانوا يتجندون لي ولا يدخلون في عداد





جيوشي الا لان ليس عندهم شيء من هذا النور . فهم اعرق
في الشيطنة مني . لا لذة لهم الا في ان يعذب بعضهم بعضاً . افلا
تسمع بما يحدث اليوم في اوروبا والشرق البعيد ؟ انا مرناح ، مرتاح
جداً ، فهو لا . الاقوام قد فقدوا النور وها هم يتخيلون في سبيل
التنكيل بعضهم البعض الآخر ما لم يخطر لي ببال بعد ان
مرغوا انسانيتهم في الوحول ، لذلك تراني مغتبطاً . ولكن لذي
هذه انما هي لذة سلبية لا تروي عطشي . فاذا رضيت انت ان
امد يدي الى قرارتك وانتزع منها خصلة واحدة من ذلك النور
اغدقت اليك النعم .

— اذن فانت تقترح ان تعطيني ماذا ؟

— ما تشاء من النساء ملكات واميرات وقرويات . انظر ...

ونظر الشاعر الى الطريق المؤدية الى المغارة فاذا هي مفروشة
بالحرير الابيض فوق اكداس من سجاد بخاري وتبريز واصفهان .

واذا رتل من الصبايا بينهم كل النساء اللواتي احبهن وقد
ظهرن بروعة لم يعرفها هن من قبل . يغنين بألحان ما خطرت
على قلب « فغفر » ولا مرت ببال « ايمست » ولا رقت على ظن
« رافل » . ولكنه تذكر وجه امرأة كانت تنسجم نفسها مع نفسه
حين كان يرتل لها شعره ، او حين كانت تنظر واياه في لوحة من
لوحات الفن ، او حين كانت تقف بصحبته امام عيون لبنان وجباله
وغاباته ، او حين كانت تسمع معه انغام روائع الموسيقى النابضة
بالحياة ، فاذا هما يحسان نعيماً لا يماثله نعيم مما يشترك فيه التراب
والشكل . ولم ير لهذه الحبيبة وجهاً في رتل صبايا الشيطان
الصاعدات . فعرف انهن لن يستطعن ان يعطينه شيئاً من تلك
الغبطة التي كان يشعر بها مع حبيبته ، وانهن لن يقوين على منحه
غير ما يقوى على منحه الشكل والتراب ، وانهن لن يتصلن
بروحه ، فأشاح بوجهه وقال :

— وغير هذا يا شيطان؟

فانهارت الرؤيا واندفعت من السفح نحو الوادي حيث
موطن الجن القديم حجارةً تركت في الهواء رائحة كبريت
وغمامات دخان.

ونظر الشيطان كئيباً الى وجه الشاعر فاذا عليه مسحة من
جمال وتباشير من فرح عميق فقال:

— وما رأيك بان أقطعك ما تشاء من الارض واشيد لك
القصور في مغارب الارض ومشارقها ، فلا تغيب الشمس عن
ممتلكاتك ، واعمر خزائنك بالمال فتعطي وتنفق وتقتني ما تشاء من
سيارات وطائرات ، وتأمر ما بدا لك من خدم وحشم ، وتملأ
مقاصيرك وجنائنك بأثار الفن؟

قال الشاعر: وما شأني وجميع ذلك وانا يشبيني رغيف
ويروي عطشي قدح ماء بارد؟ لقد عرفت الاغنياء فما رأيت ان

الثروة تريد في قيمهم الانسانية شيئاً . ~~لا بل~~ وجدت الذهب والماس
يشغلانهم عن الغايات البشرية ويحولان بينهم وبين المعرفة والجمال
ويثيران احقاد المحرومين . الذهب ! لقد صرف الذهب الانسان
عن الانسان وجنّده ضد اخيه وسخر عقله . هذا العقل الذي
تشاركه ، ايها الشيطان ، فيه والذي اذا نظر اليه على ضوء النور
العميق ظن انه من صنعك لا من صنع الله . هذا العقل الذي
ابتدع الجنسيات والقوميات واخترع الآلة ووضعها سلاحاً رهيباً في
خدمة الشر .

— دع عنك المزاح وعد الى رشدك ، واغتنم فرصة لن تسنح
لك مرة اخرى ، فانا لن اقف نفسي على رعايتك طول العمر .
➤ انك تريد مني قبساً من هذا النور العميق . وانت تعرف
ان ما من احد يستطيع ان يعطيكه ، والذين أخذوا بجبائلك من
اخواني البشر وقبلوا المقايضة فقدوا النور لكنهم لم يقدرُوا ان

يعطوك منه اي شعاع ضئيل . فانت اذا كنت تستطيع ان تعطي فليس بوسعك ان تتلقى الخير والنعمة .

→ الى اي شيء تراءى تطمح ؟ ان هذا العقل الذي تثور عليه والذي تفضلت بأن جعلتني فيه مشاركاً للانسان هو الذي شاد هذه المدنية الغربية الرائعة التي تتملق كبرياء البشر .
→ ان الانسان ما زال كلما انساق بسبب ضعفه لغوايتك يفقد النور ولا يبقى له دليل غير هذا العقل الذي تشاركه انت فيه ، ويفقد انسانيته ، اي نزوعه بحب دائم والحاح مستمر الى الحرية .
→ ومن هنا هذه المذنبات الشوهاء القائمة على الحديد وعلى الشكل .
ومن هنا هذه الانانية التي حلت محل الحب في قلبه . ومن هنا ان كبار الفلاسفة قد ماتوا فعلاً . ومن هنا ان سلالة المصورين العظام والموسيقين العظام والشعراء العظام قد انقطعت وحل محلهم مدارس في الرمزية والتأثرية هي من الاعيىك انت ، وفي التصوير

المكعب وهي من احاجيك .

— وما حيلتك انت ، ايها الابله ، في جميع ذلك ؟ الا تشعر ان

التيار يمر فوقك صاخباً مندفعاً وان لا حيلة لك بوقفه ؟

— ومن هنا ايضاً ، ايها الشيطان ، ان هذه المدنيات القائمة

على عقلك وعقول الناس ان هي الا مدنيات جافة جوفاء

﴿ لا زاوية فيها للروح وللحب المتصلين ينبوع النور الازلي . ومن

هنا ايضاً ان وجود الآلة ولمعانها وكمالها وقدرتها على رفع الحجر

شاحناً عالياً في وجه السماء وارتفاعها هي الى اعلى مراتب الجو

وتحدرها الى ابعاد الاعماق ، لم يخفف من الالم الذي ما يزال اخواني

البشر يتخبطون في ديجوره .

— فتعال اذن وسر في موكب الناس واستمع بالانانية

لابعاد الالم عنك .

— كلا ، ان ذلك لن يفيدني شيئاً ﴿ فالنور الذي يتألق في

اعماقي وتموت انت حسرة عليه ، لو انك تموت ، يجمعاني احس ان
قلبي مسرح للانسانية جمعاء . ان كل جرح في جنب كل جندي
جرحي انا ، وكل يده تمتد مستعطية يدي ، وكل بؤس بؤسي ،
وكل حرمان حرمان ، وكل شكل شكلي ، وكل يتم يتمي ،
وكل بكاء بكائي ، وكل جوع جوعي ، وكل جهل جهلي .
فانا شريك الانسانية بالامها . ولن يهدأ لي بال ولن يستقر لي
قرار ولن اطمئن الى نعمة حتى تهتدي الى طريق الحق ، الى
طريق الخير .

فارسل الشيطان ضحكة خبيثة ساخرة وسأل : وكيف

تحقق هذه الاعجوبة ايها الصغير العمي ؟

— بالحب وبالحب وحده ، بالحب الذي يجب ان يظل عماد العقل
ورأئده . فنحن هنا في لبنان ، على الرغم من سخريتك ، في بلاد
الرسال والانبياء والالمة ، نحن في بلاد الحب . وستكون رسالتنا

ابداً ان نغذي البشرية من معينه ونذكرها بكرامتها ونسير

امامها في طريق الخير

فاذا قرون طويلة تنبت في رأس الشيطان واظافر فولاذية

تتد من اطراف اصابعه . واذا لهب يتدفق من فيه وانفه . واذا به

يهجم على الشاعر فيغرز فيه قرونه واظافره ويغمره باللهب . واذا

اغنية تشيع في الاجواء : ما بدا لك ايها الشيطان ، فلن تقضي

على سلالة حملة المشاعل في لبنان ولا على رسالة الحب .

ملکرت

بين الآثار التي اكتشفها العلماء أخيراً في رأس شمرا مذكرات
شاعر نفتطف منها هذه الصفحة ، قال :

اشهد اني ما حملت قبل حليماً كهذا . فقد كنت اسير على
الشاطئ ، ميمماً صور واذا امامي فتى مديد القامة ، اسمر الوجه ،
رقيق العينين ، اسود الشعر مسترسله ، عريض الجبين ، مفتول
العضلات ، متناسق التركيب ، دقيق المفاصل ، صغير القدمين ، طويل
الانامل ، متمنطق برداء ارجواني ، تشع القوة والاناقة والعزم
منه . فبهت لمرآه واخذت احدث اليه بشيء من الاعجاب
والتساؤل : من عساه يكون هذا البطل ؟ أله ملك من ملوك
الساحل او قائد من قواد مصر العظام ، او لعلي احلم وتقدم
الفتى نحوي مبتسماً وقال : انا ملكرت .

— ملكرت اله البحر؟ رب الموج؟ .. ملكرت أسطورة
جميلة، خلقتها بخيلة اجدادي . ملكرت طيف حلو رائع، لا شيء
الا طيف، فكيف تكون انت ملكرت؟
— انا ملكرت معبود اجدادك . أفلا ترى انهم كانوا على
حق في ما يعبدون؟

انا اسطورة، وانا جميل ورائع وقوي لاني اسطورة .

انا حلو ازلي ابدي لاني طيف .

تتراكم الحوادث على بخيلة البشر في هذا الشاطئ الجميل،
فتعصف الايام وتكرر فتمحوها وابقى انا طافياً معتصماً بشراعي،
أملأ ذكرياتهم وارتنج في صدورهم وارتدد على افواههم كلما نظروا
الى هذا البحر وكلما خفق شراع او تهادى مركب .

— انت ملكرت ... انت اذن ملكرت .

واحسست ان ايماناً قديماً يستيقظ في داخلي بعد أن رقد

آلاف السنين : واين انت اليوم ؟ اين انت ؟ .. لا يراك احد ولا
يسمع صوتك احد . لقد تناساك بنو قومي كأنك ما كنت ،
و كأنك مت ، مع من مات وفنيت مع من فني ، وكأن لم يحقق
لك شراع ولم يزحف مركب على ماء .

فضحك الفتى حتى هاج البحر وماج واقتحم الرمال
وتكسرت امواجه عند قدميه وقدمي .

— انا هنا كل يوم لا ابرح شواطئ بلادي ، احرسها ليل
نهار .

انا هنا في خواطر الناس ، في صدرك وصدورهم .

انا في النور المتدحرج مع الفجر على القن والاداء .

انا في الماء المتدفق من الينابيع المهرول نحو البحر .

انا في اغصان الارز والصنوبر والشربين المرتفعة المتأيلة في

الهواء .

انا في ارج الزهر وفي سنابل السهل .
انا هنا . عبثاً ينساني او يتناساني الناس فسأظل الهادي ،
وسأظل الطريق ، وسأظل الخير .

— تباركت من نعمة ومن محبة ومن خير !
ورأيتني اتفهم سبب الشوق الذي يغمرني ويدفع بي نحو النور
والينابيع والاغصان والجبال والوداء . واسمع الصلاة الصامتة
التي تتصاعد من اعماقي في خشوع وايمان ورهبة كلما نظرت الى
هذا الجبل ، او كلما لمست ترابه وعببت من ينابيعه واصغيت الى
انغامه ، او كلما رميت بتفسي في امواه بحره .
— تباركت ملكرت اله البحر . تباركت طريق المعرفة ،
تباركت ، تباركت .

فابتسم الفتى ورفع يمينه في حركة من يبارك وقال :
« لقد خلقت لكم البحر اهل بلادي ، وانتم منذ ذلك العهد

وعيونكم ابداً اليه وقلوبكم ممتلئة منه . قد تعتصمون في الجبال
وتنفخون الحياة في الصخور ولكنكم تتطعون اليه وتنزلونه
وترفعون فوقه الاشرعة وتباركونه فكأنكم منه ، من قطراته ،
وكان نفوسكم مكونة من زرقته . ان بينكم وبينه نسباً . اي
اثر ترك لكم بعل ، واي ماثرة خلف لكم ؟ لقد تناسيتهم
ادونيس وعشتروت ، فهلكا تحت غبار السنين . اما انا فقد خلقت
لكم البحر فدخلت الى قرارات نفوسكم ، وتغلغلت في اعماقها
الخفية . وعبثاً تنسون اسمي وتعبدون آلهة غيري ، فانا الحي الذي
لا يموت في ضمائركم وضمائر بنيكم ما دام هذا البحر الذي
تراه هنا ينسج احلامكم ، ويصقل عقولكم ، ويفجر عواطفكم . وانها
لحكاية طريفة تلك التي حدثني ان اخلق هذا البحر ، فأكون
امة واميزها من سائر امم الارض على كر العصور .
كان رفاقي الآلهة قد اقتسموا ملك الطبيعة . فاذا هنالك اله

الخير واله الشر والحرب ، اله السماء واله الارض ، اله الجحيم
واله الحكمة ، اله الرقص والفنون الجميلة ، اله البرق والرعد ،
واله النجم . وبقيت انا لا مملكة لي ولا عمل .

اقضي ايامي متنقلاً في ممالك رفاقي وقصورهم وجنائنهم .

اغازل الالهات وانعم بجمالهن .

واحتسي الخمر لاهيماً عابثاً .

وارى الناس يعبدون رفاقي ويقربون لهم القرابين استدراراً

لخيراتهم او دفعاً لشركهم ...

وامرّ فلا يحسني احد ولا يعبأ بي . وذات يوم بينا كنت اتلقن

اصول الحكمة من فم « مينرفا » متنقلين فوق جبال لبنان ، هبت

من ناحية الصحراء عاصفة واندفعت الرياح تزجر وتولول ثم

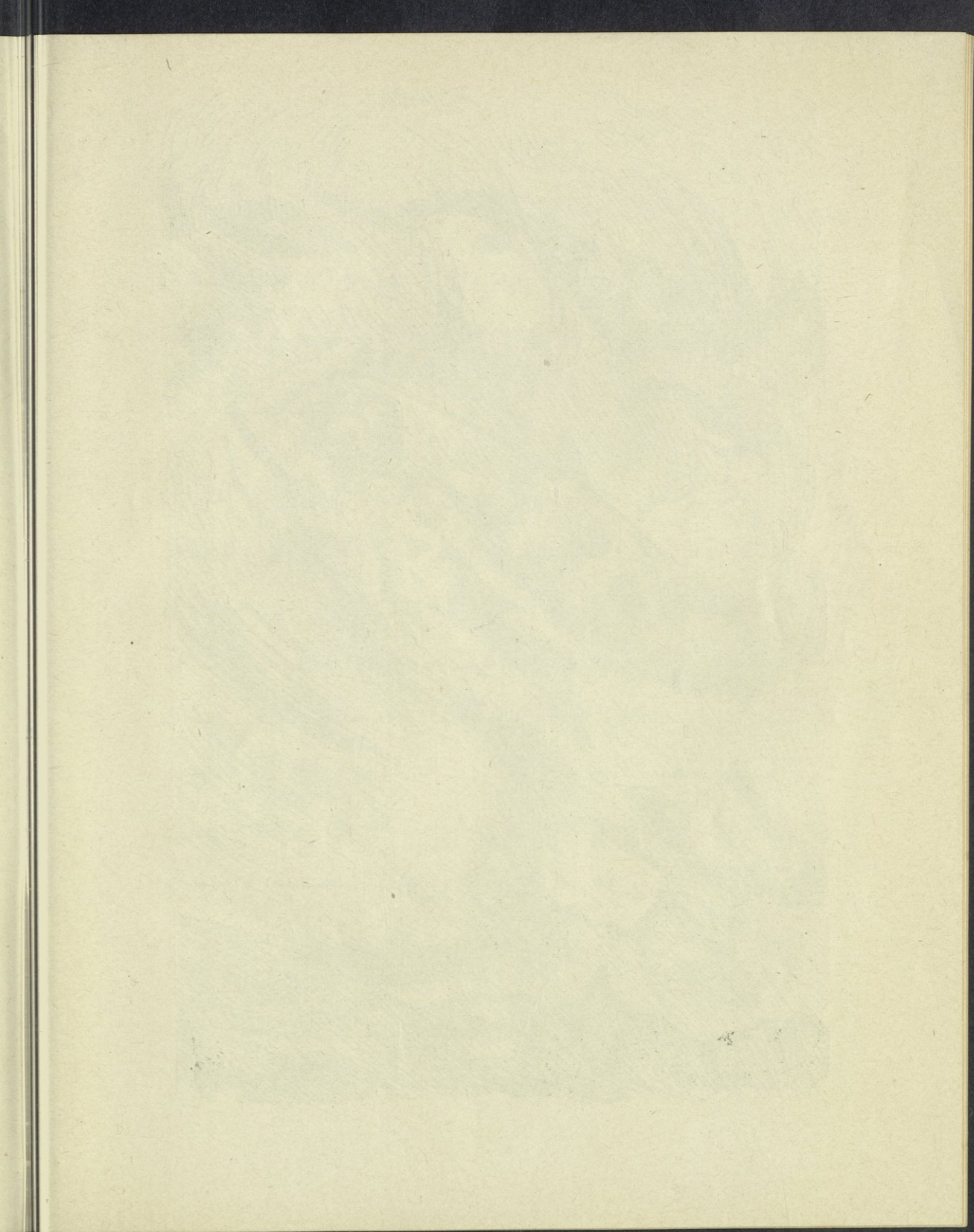
عصفت في ردائنا واخذت تدفع بنا بعنف ، كادت ان ترمي

بنا من شاهق لولا اننا تخليصنا عن الردائن .

فحملتهما الرياح الى بعيد ورمت بهما في الوادي السحيق
الذي كان ينخفض عند اقدام الجبل الاشم .
ولما هدت العاصفة كانت فكرة الشراع قد انبعثت في
خاطري واكتملت .

ومرت على ذلك عصور طوال وانا انظر الى جهد الانسان
وعنائه ، والى محاولاته الفاشلة في قطع الهوة العميقة التي تفصل
لبنان عن البلدان الغربية النائية . فاشفقت عليه ، على ضعفه الى
جانب ما ساورني من اعجاب بعناده وصبره وجلده . وقلت في
نفسي : سأبسط هذه الهوة واسلمه الشراع . واخذت سوطي ورحت
أهب السحاب فتدفقت قربه ، وضربت سفوح الجبال فتفجرت
الينابيع وكرت الانهر وزحفت المياه متساقطة في الوادي العميق .
وانا انظر مغتبطاً وازداد همّة في حث السحاب واستدرار
خزانات الارض .





فما يسمع الا قصف صوتي والا وقع قدمي وهما تحطمان
الصخور وتغوصان في الارض وتشقان السفوح .
ولقد ظن الآلهة انني جئت فتجمعوا وأخذوا ينادونني
ويتلطفون الي خشية على الارض من فيض السيول .
وراح كل واحد يعرض عليّ ان يتخلى لي عن ملكه .
فما باليت بهم ولا بعروضهم ، بل مضيت في عملي الى
ان ملأت الهوة .

فامرت السحاب ان يرتفع فارفع ، والسيل ان ينقطع
فانقطع ، والينابيع ان تتمهل فتمهل ، وصحا الجو واشرقت
الشمس على البحر الذي انا ربه .
وظل الآلهة طويلاً يظنون بي مساً من جنون وهم لا
يدركون قيمة الزوبعة احدثتها تلك العاطفة التي جاشت بي
ولا مدى اثرها على مستقبل البشر .

ونظرت بعد ايام الى البحر فاذا مياهه تتموج بيضاء صافية ،
فمدت يدي الى السماء واخذت قطعة منها وعصرتها في اليم فاذا
سماء ثانية تكتنفها الارض ، واذا في قدرة البشر ان يتلمسوها
بايديهم .

وخرجت بعدئذ الى الناس كواحد منهم ومضينا الى غابات
الارز وانشأنا اول مركب رفع فوقه اول شراع وركز اول
مجداف وجريت واياهم فوق اليم .
منذ ذلك الحين والاشرة تروح وتجيء فوق بحري بالخير
والبركات . «

— تباركت ملكرت اله البحر ، تباركت ملكرت .
وتوات الرؤيا .

الكلب المجنح

من اعماق الجبل

كل سنة في الثلاثين من ايلول يسمع سكان نبع الصفا
عواء ينحدر بين الصنوبر والادغال قادماً من ناحية النبع ، تردده
الاصداء وتتناقله الاوداء . وتظل كلاب الجيرة بعد ذلك اياماً لا
تنبح ولا تهرّ في وجه فقير ، كئيدة حزينة تتلفت ناحية مصدر
الصوت . فتسرح بنات آوى في تلك الفترة وتمرح يقيناً منها
ان كلاب الحي لن تتصدى لها بسوء ، ولن تجري وراءها ، ولن
تعكر عليها صفو الصيد . اما الدواجن فتأوي قبل الغياب الى
مزاربها لعلها ان الكلاب لن تدفع عنها ضيراً ، ولن تقيها شر
الغزاة اذا ما قدموا باظفارهم وانيابهم .

قالت لي عجوز : بقي هذا السر مكتوماً والناس يتأولون فيه
الى ان كشف عنه ساحر من بلاد الشرق البعيد ، كان يتنقل في

تلك النواحي . فاتفق له ان حط ركابه في اواخر ايلول في الصفا ،
وكانت الليلة قراء تغمر الفضة اعالي الصنوبر والشرين وتفرش
الارض . والنبع يغني اغنيته الازليّة في ذلك الوادي وينحدر
متألقاً حيناً تحت ضوء القمر ، مختبئاً حيناً في عتمة المنحدرات
كأنما تسبح فيه الف حورية بيضاء الى جنب الف مارد اسود .
قال الساحر : ولست ادري ما حداني ان ازور النبع تلك الليلة
فقممت اليه سالكاً الضفة الشرقية من النهر حتى بلغته ، فاذا هو
يتدفق من تحت صخرة عريضة ويتجمع في غبيط قبل ان يكر
كرته الكبرى . واذا قبالة صخر كأنه مقعد من فوقه رفرف .
فتمددت هناك اتأمل الماء والنور وتألق مجديهما . وبينما انا على
هذه الحال سمعت في الماء حركة غريبة فالتفت فاذا مياه الغبيط
تنفرج ، ويقفز منها فتى بهي الطلعة حلو الملامح موشح برداء
قرمزي مؤثر بزوار ايض ، وقفز معه كلب انقى بياضاً من ثلوج

الباروك . ويستوي الفتى من فوق الصخرة العريضة الممتدة فوق
النبع ، ثم يلتفت الكلب ناحية القمر من السماء ويرسل عواءه
الحزين الكئيب الطويل ، فاذا بي احس بكاء في الفضاء ، واسمع
بكاء في اوراق الصنوبر ، وبكاء ينحدر من اشجار الارز الجاثمة هناك
بعيداً فوق اعلى الجبل ، وبكاء في الصخور وارتعاشاً في الاعشاب .
ثم يحني رأسه فيربت الفتى على ظهره ويدور ناحيتي ، فأقف مرتاعاً
واحبيه فيرد التحية ويقول : هي اول مرة منذ مئات السنين ارى
فيها وجهاً لانسان . ولطالما حننت الى محادثكم انتم البشر من غير
ان ادرك سبب هذا الحنين . لقد كنت اميراً من الجن مؤمراً على
هذه الناحية من البقاع ، حتى وطئها اخوانك من الناس وافسدوا
علي الاقامة فأويت الى هذا النبع ، اقطن مع عشيرتي جوف الارض
في مغاور النبع وجيوبه . لا اخرج الا مرة في السنة مع كلبي
هذا فاذا متّع عينيه بالقمر ونوره ونبح في وجهه نباحه ، عدت .

واياه من حيث اتينا .

قال الساحر ، وهو المؤلف للجن واحاديثها : لما رأيت هذا
الامير من الجن يحدثني بمثل هذه البساطة روح عني وعاد الي
روعي واجترأت على السؤال :

— وما قصة هذا الكلب الذي تخرج به كل سنة مرة من
ملكيتك تحت الارض لينبح في وجه القمر ؟

قال : اتاني هارباً من الناس القاطنين على ساحل البحر ،
وانضم الى فصيلة كلابي . غير انه ظل فريد المسرى دائم
الاكتئاب ، تمر الطير فيرمقها بنظر حزين ، وتشدو فيصغي الى
غنائها والدمعة في عينه . وتظهر الضبعان فلا يهتم في اثرها ، ولا
يكشر عن انيابه ولا ينبح . يربض اذا ما سجا الليل على صخرة
من هذه الصخور ، ويروح يتأمل النجوم البعيدة . ولولا انه
كان يهرّ في وجه القمر اذ يطل من وراء هذه الجبال لما خيل

كلباً من الكلاب .

جاءني يوماً متبرماً : اف لهذا العيش ! اننا نحن سلاله
الكلاب لأقل حظاً في الدنيا من سائر المخلوقات . فالانسان الذي
يحسب انه سيد هذا الوجود ، ما دب على الارض وما ارتفع
فوقها من نبات ، وما اختلج في صدرها من كنوز وما تدفق
من ينابيع ، وانه هو وحده صاحب العقل ، وان انسانيته شيء
من كنه الآلهة ، لأقل وفاء من الذئب . لقد صادقناه نحن
جماعة الكلاب ، ووفينا . وصرنا له عوناً على سائر الضواري
والجوارح . نحمي دياره وقطعانه ، وننقله على مكان من الطير اذا قام
يسعى لصيد ، ونصد عنه عدوان شقيقه الانسان . وها هو
يستعبدنا . ها هو يقيدنا بالسلاسل ويطعمنا من فتات مائدته .
له اللحم ولنا العظام . يغضب فينتهرنا من غير ان نكون سبباً في
اغضابه ، ويفرح فلا يصيبننا منه غير الرفس .

والطبيعة ايضاً لم تنصفنا . ولست ادري أيجس اخواني
الكلاب ما احس من الظلم ، ام تراني وحدي اشعر بالاجحاف
الذي منيت به وفصيلتي . نحن اذا شئنا المسير من مكان الى
مكان تحتم علينا ان نقيس مدى الارض الفاصل بينهما مشياً
على الاربع ، فلا بد من صعود التلال ، ولا بد من هبوط
الوداء . فاذا قام بين المكانين حائط مرتفع ، تعذر علينا الوصول
او اضطررنا الى سلوك طرق ملتوية تضاعف المسافات . في حين ان
الطير تستطيع ان ترتفع في الهواء ، وان تسلك اخصر الطرق الى
مزارها . ونحن لا نستطيع ان نتسلق شجرة ولا ان نترجح على
غصن بينا من الحيوانات من تقوى على ذلك وتستطيعه . ونحن
اذا نطقنا فنباح لا تتغير وتيرته ولا تعذب رنته ولا يرق
قراره : مقاطع واحدة للطلب والاعراض وللتشكي والتشكر .
ولولا هزة الذنب لما استطاع واحدنا ان يعلن عن غبطته .

وانت ، يا اميري ، لو لم يكن لك بعض خصائص سليمان ، عليه السلام ، لما تمكنت من فهم ما اشكو اليك .

اما منظرونا فمن اين لنا ذلك الريش الصقيل وتلك الالوان اللماعة البهية ؟ من اين لنا مد الجناح ورفع الذيول ؟ وكيف نطال هذا الجو الفسيح ونحن نكاد لا نجرؤ على القفز من فوق حائط ؟ وأنتى يكون لنا مجاورة النجوم ونحن لصقاء الارض لا نقدر ان نفصل عنها ولو بمقدار علو شجرة ؟ نعم ان الاسد لا يطير ، والنمر لا يجاور النجوم ، وابن آوى لا يحط على الماء ، ولكن للأسد صولته ، وللنمر هيئته ورهبته ، ولابن آوى حريته . فليت لي يا سيدي جناحي النسر قوة ، وصوت الكنار حسناً ، وألوان ذنب الطاووس ، فأتغننى واقايل وادل واذهب حيث يطيب لي المقام . اشرب من رؤوس الينابيع ما استعذب من مياه ، وألتقط ، اذا شئت ، الندى المتساقط على اوراق السنديان ، واطلب

ما استسيغ من طعام وساعة ما استسيغ . ثم اجرر ذيلي على قنن
صنين وظهر القضيبي والباروك ، وامر عالياً بعيداً فوق
الحرمون ، ويُظل خيالي الناس عندما ارتفع الى جوار الشمس .
فرق قلبي ورحت اهون عليه :

— دع عنك هذه الاماني ، واخل الوهم . فانت لو صرت الى
ما ترغب في ان تكون لحننت الى ما انت فيه .
— هذه يا اميري احاديث انسان .

— وهب ذلك ، افتراك اعلم منه واقدر على فهم الحكمة ؟
— لا ، ولكني لاحظت ايام كنت في خدمته انه متى عجز
عن تحقيق الاماني ، او متى ارهقته نازلة ، عاد الى هذه الحكم
الهينة ، يسلي نفسه ويروح بتردادها كربتته . فهو لا يسلم بالقدر
الا اذا لم يوفق في رغبته . اما اذا وفق فليس للقدر ولا للرب
الذي يعبد في توفيقه شأن ولا ارادة ولا تدخل .

أفتريدني كالناس يا مولاي ؟ اني لست في حاجة الى من يهون علي . انا اعرف ان الطبيعة اساءت اليها نحن ، معشر الكلاب ، واعرف ان لا حيلة لي في التبرم بالطبيعة . فما هي حاجتي بعد للقول انني متى صرت الى ما اشتبهه اسفت على ما كنت فيه ووددت العودة اليه ؟ ليق اذن شوقي الى حالة امثل يحز في نفسي الى ما شاء ، فلن يظفر مني باذعان للقدر ولا بتسليم . وسأظل حانقاً على هذه القوة التي خلقتني كلباً ، ولم تخلقني طائراً او سباعاً او غمراً . — ولكنك تجدف وانت حري بان تُرجم . أفلا تخاف سوء

المصير ؟

وكيف اهرب ؟ ان هذه العوالم اذا صح زعم الانسان ليس لنا فيها محل ، فنحن وسائر الضبعان والطيور لا ينتظرنا بعد هذه الحياة نعيم ، ولا يهددنا جحيم . يقول الانسان ان ارواحنا تنحل مع اجسادنا . فنحن تراب كلنا والى التراب كلنا . وسيان

أدفعت الكلاب ضياءً عن مخلوق ، او الحقث به الشر ومزقته بانيابها
وهشمته ، فهي اذا استطاعت النجاة من عقاب الناس ، فلن يلحقها
بعد ذلك عقاب . افعلمت لماذا اريد ان اكون طائراً قوي
الجنحين حلو الطلعة ، احقق نعيمي هنا واهرب من جحيمي هنا ؟
— انك تتحدث كأنك انسان ، وبعض الناس يؤمن ايمانك
هذا ، افتعرف ؟

— اعرف ، نعم . واعرف ان الانسان آمن بكل شيء وانكر
كل شيء . . واذا كان ما يزعمه بعض الناس حقاً من وجود اله
وشياطين فما اعجب الا لهذا الانسان الذي يفتش عن الآلهة
ويبحث عن الشياطين ، وكل ظني انه مركب من اله وشيطان .
فلا الاله الذي يجد في اثره ببعيد عنه ، ولا هو يستطيع تفلتاً من
شيطانه . ولكن ما لي يا سيدي وللناس . والحديث عنهم كالحديث
عن الافاعي ، فلندعهم في شقائهم . ان العقل الذي يدلون به على

سائر الحيوان والنبات ، هو سبب شقوتهم . اواني لتراني شاكراً
حامداً ان ليس لي عقلهم ولا حكمهم ولا مشاكلم . كل رغبتى
ان يكون لي ميزات الطيور . ولقد رأيتك يا مولاي قوياً قادراً
على ما لا يقدر البشر . فانت تستطيع ان تظهر شخصاً وان تغيب
عن متناول الانظار ، بيد انك تكون حاضراً . ورأيتك احياناً
تنقلب طائراً نادراً او اسداً مهيباً . فرقاً لحالي وهبني جناحي
نسر وحنجرة بلبل ، فاغني لك اطيب الاغاني واسعى في
حاجاتك ، وارفع لك الابتهاال حتى آخر العمر .
ويك اني اذا وهبتك ما تريد ، لن استطيع ان اغيّر من
طبائعك ، بل ستظل على الرغم من الشكل انت اياك كأنك ما
اعتصمت بجناح ، ولا ارتفعت في فضاء ، ولا تقربت من مطارح
النجوم .

— رحماك يا مولاي ، دعنا من آراء الناس ، وهبني ما اطلب .

قال امير الجن : فنفتحت في انف هذا الكلب ، فاذا هو طائر
ما وقعت على مثله عين . في ريشه كل الوان قوس السماء ، وكل
ما بينها من الوان جدد لم تخلق الا له . واعطيته خصائص لم يتمتع
بمثلها طائر . فكان اذا شاء يصير اسود كله او ابيض كله . وكان
بوسعه ان يكسو احد جناحيه وما يليه من الجسم ظلمة الليل
ويكسو الآخر وما يليه بياض الثلوج . بل كان في طاقته ان يظهر
بلون واحد من الالوان التي يشتهي ، او ان يظهر بها جميعاً . فكأنما
هو عروس من بنات الملوك ، خزائنها ملاءى ، وملابسها
دائمة الجدة . اما غناؤه فقد عرفت ان غير واحد من الكناري مات
حسداً عندما سمعه ، وان البلابل اقسمت لا تغني امامه . وقد
كان لجناحيه قوة ما تيسرت من قبل لجناحين . يطير الايام ، ويطير
الليالي فلا تعب ولا عياء . وراح طائري هذا يقطع الافاق ، يدل على
السهول ، ويرتفع فوق الجبال حتى يقارب الشمس ، فما بقي في العالم

غاب لم يزره ، ولا بحر لم يرف فوقه ، ولا نهر لم يواكبه ،
ولا كناري الا عالمه الغناء . ثم عاد الي بعد زمن يحدث عن
عجائب الارض والمخلوقات ، وينظم كل يوم لحناً جديداً فريداً .
وذات ليلة من اواخر ليالي ايلول كان طائري العجيب يسمر
على غصن عالٍ من اغصان الصنوبر القائم هنا كالشموع ، فاذا
بالبدر يرتفع على مهل من وراء الباروك ويغمر الدنيا بفضته ،
فانقطع صوت طائري وراح يتأمل القمر . وما هي الا نبهة
ارسلها في وجهه طويلاً ، فاذا بالريش الجميل . يتناثر في الفضاء الفضّي
ويختفي ، واذا طائري على الارض ذلك الكلب .

ولما عكر الانسان علي صفو هذه الديار ، ورحلت وعشيرتي
الى مغاور النبع ، استصجبت هذا الكلب ، لعلمي ان النفس الذي
نفخت في انفه قهر الموت ، وانه اذا بقي هنا سيعيش معذباً بين
المتين . وها اني اخرج به مرة في السنة ينبح في وجه القمر ،

ونعود .

قال الساحر : وسقط امير الجن وكلبه في الغبيط وتواريا عن نظري في مغاور النبع بعيداً تحت الارض .

والمعاني

في اللغة العربية

من تأليف

أحمد

بن

عبد

الرحمن

بن

عبد

الرحمن

بن

عبد

الرحمن

بن

عبد

الرحمن

بن

عبد

الرحمن

العرعار

من اعماق الجبل

كان ما كان في قديم الزمان وفي ما كان صبية من الجن
تعيش بين التلال القائمة هنالك فوق قريتي في مخبأ جعله القدر
جوف جدة السندية الجبارة التي تظل اليوم بقاع الحلقة ، وتُرى
عن قدمها الاحاديث ، وتذكر ابواب السرايات التي اصطنعها الامراء
من خشب جذوعها ، وتعقد حلقات الصبايا والشباب تحتها كلما
خرجوا لنزهة ايام القطاف ، ويرتجحون على اغصانها . ولا أهل
القرية شغف بهذه السندية وانعطاف اليها . فاذا ذكرت لهم
ترنحوا وساورتهم خيلاء لا تقل عن خيالاتهم عندما يذكرون
البرج القديم الذي صنعت من حجارته كنيستهم ، او عندما
تحكى حكايات امواتهم وما كانوا عليه ، يرحمهم الله ، من فطنة
وشجاعة وايناس .

يقال ان صبية الجن تلك كانت من الجمال على جانب يهر
الابصار ويأخذ بالقلوب . لا يصلح الفجر ان يكون خادماً لها
ولا يشرف الطيب الا عالقاً باطراف اردانها . اما اناقتها فقد
حفظت لنا التقاليد الموروثة عنها ما يفتن العقل . تظهر كما ظهرت
برداء جديد يلفها لفاً لا يضيع معه شيء من جمال التكوين ولا
يقلق الحشمة في شيء .

وكان الفصول كانت مؤتمرة لما تتخير هي من الوان : فاذا
خرجت في المعطف الازرق ، صفت السماء ومسحت وجهها بالازرق
الناعم . واذا اقبلت بالاخضر ، ترخت الغصون ولمع الاخضر في
جنيات الغاب واعشوشبت السفوح . وتمر الغمامات البيضاء حاملة
كلما لوحث شيء بمنديلها الابيض . ويجيء الخريف ويعلو
الاصفرار اذا ما بدا لها ان تطل على التلال بثوبها الاصفر . وما
كانت الورود لتفتح شفيتها لندی الفجر ولا لترتفع اعناق الشقائق

الا عندما تقبل الصبية بالاحمر اللاهب ، بالارجوان الذي علّمت
صنعه اهل الساحل ارضاءً لترفها .

ولقد كان اجدادنا القدماء يرجعون سراعاً الى بيوتهم يحصنون
ابوابها ونوافذها ويعدون الوقيد عندما يلح واحد منهم الصبية تتأيل
بالاسود البراق يقيناً منهم ان السماء ستقطب وتكفهر جوانبها
وتتفلت الاغصير من مكائنها في الجبال وتهوي من اعالي صنين
والزعرور وجبال الباروك مولولة ، صاخبة ، عاصفة ، مكتسحة .
ولكن الصبية كانت دائماً نعمة تلك البقاع وخصبها وحياتها .
فلقد كان يكفي ان يمر ظلها الرضي مرة في السنة على وجه
الارض حتى تتدفق خيراتها بين يدي اجدادنا ، وتحل البركة على
الكروم ، وتشقر العناقيد ، ويقطرّ التين عسله ، ويحلو الاجاص ،
وتثقل اغصان التفاح ، بعد ان تمتلئ الاهراء بشتى الحبوب .
تلك كانت حياة اجدادنا في عهد صبية الجن : عيش مطمئن

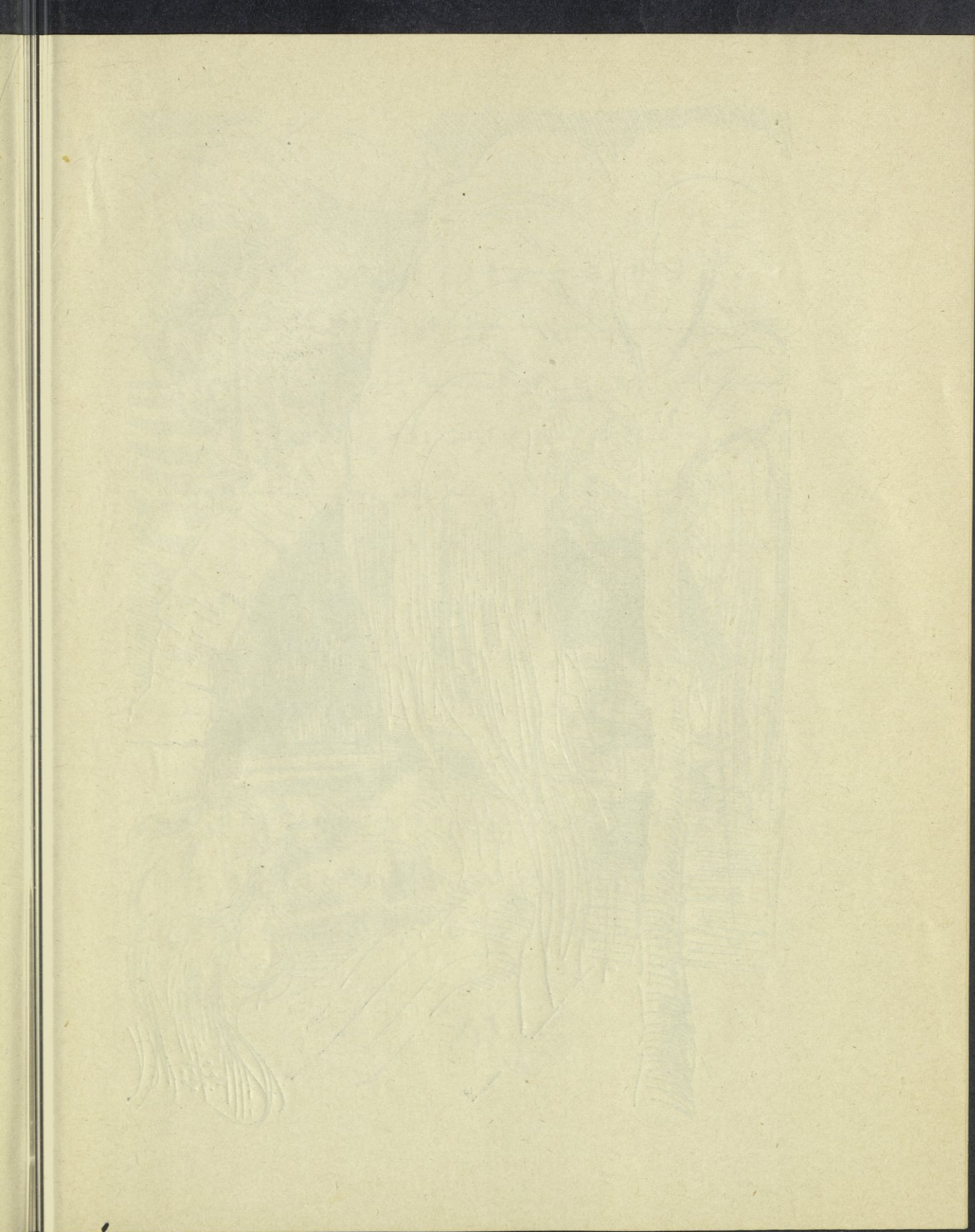
وترف دائم . لا حسد على نعمة ، ولا تنازع في ملك ، ولا
تنافس في جاه ، ولا صبوة الى شيء يقتنيه واحد بالاستقلال
عن الآخرين . بل ثروة موزعة بالسواء ، وخيرات مقسمة
بالسواء ، وغبطة شائعة بينهم بالسواء . يزيد نصيب الواحد منها
عما تقتضيه الحاجة وتتطلبه الرغبة .

عكف اجدادنا في ذلك الزمان على مشاغل الفكر وعمرؤا
مكاتبهم ودورهم بآثاره ، لا فاتهم فلسفة ولا افتقروا الى فن
من فنون الموسيقى والتصوير والنحت والبناء . ولولا زلازل
درست معها آثارهم لكان اليوم بين ايدينا منها ما لا تذكر عنده
اليونان . ولكن تلك البراكين التي تفجرت على مقربة من القرية
والتي لا تزال نشاهد حممها في « حقلة السودا » اجبرت حفداء جبايرة
الفكر اولئك على الفرار لا يلوون على اثر . ولما عادوا بعد
ان هدأت ثورة الارض لم يجدوا من آثار آبائهم شيئا .

وظل اجدادنا في نعيمهم هذا زمناً طويلاً الى ان حدث ما لم
يكن في حساب احد وما جهلوا هم اسبابه وذهبوا عن وجه
البسيطة وهم يجهلون . وهو ان صبية الجن اختفت يوماً على اثر
زوابع زعزعت عمد السماء وروعت رواسي الارض .
وما لاحظ اجدادنا الا ان نبعاً تدفق بعدئ عند سفح جدة
سندية الحقلية في مطرح يقال له العرعار .

وخبر كل ذلك ان اميرين فتيين من امراء الجن وقعا في حب
الصبية فرأت ان لا يحظى عندها الا من هو منهما ابسل واشد
ساعداً واكثر خبرة في فنون القتال . فنشب بينهما براز عنيف
دام اياماً وليالي ، تقاذفا خلاله يجذوع العتاق من اشجار الصنوبر
والسنديان والارز ، وتراشقا بالنجوم . وامتدت ايديهما الى قن
لبنان فأوجف عليه القدر ورمى بالخصمين في ظلمات ما خلف
الشمس ، حيث ما يزالان يقتتلان . ونظر الى الصبية فاذا هي





تفرق عند السنديانة الجبارة في جوف الارض وتنساب من
هناك ثم تنطلق في العرعار ماءً زلالاً صافياً انقى من دموع
الفجر وابهى من احلام العذارى .

تبدلت الحال بعد ذلك على اجدادنا فبخلت عليهم الحقول
بجيراتهما ، وجفت ضلوع العرائش ، وفرغت الاهراء . ولولا ذلك
النبع الجديد الذي كانوا يتملقون به الارض فيمرع منها ما يلامسه
الماء ويعود حيناً الى سالف سخائه ، يوم كان ظل الصبية يمر عليه ،
لمات اجدادنا جوعاً . غير انه كان لا بد لهم من العناء والعمل
والكد والجد ، وكان لا بد لهم من ان يتنازعوا في ثَمَّك الصالح
من الارض لقربها من النبع وتسلمته عليها . وكان لا بد ان يظهر
عندهم شغف به وحرص عليه واحترام يكاد لا يفرق عن التقديس
الا قليلاً . وكانت الصبايا يتعبدن في سبيله فيصعدن كل سنة
موكباً طويلاً ايض يرقصن حياله ويغنينه ويتبركن به . ومن هنا

ان القرية عرفت بين اهل الجوار باسم بيت العابدات .
وظل نبع العرعار منذ ذلك الحين مطمح الانظار حتى من
غير اهله ومحط ركاب حتى الغرباء عن البلاد . ولقد خطر ذات
مرة لقوم من عمال قياصرة روما ان يجرزوه ، وان يقدموه قرباناً
لواحد من آلهتهم شيدوا له هيكلًا فوق اطلال هيكل بعل مرقد .
فأقاموا للنبع قبواً معقوداً بالحجارة الضخمة ، وعمدوا الى الصخور
فأفرغوها ، ونحتوا منها قساطل لجر المياه . فعرف اجدادنا آنذاك
اتعس عهد من عهودهم . غير ان العرعار ما عثم ان حطم قيوده
ومزق قساطل الحجر وعاد الى بقاعه يحمل الخير والبركات .
وها نحن اليوم نعيش في كنفه ونتبرك بوجهه سواء في ذلك
فقيراً وغنياً . فقد يولد واحدنا معدماً ويعيش معدماً لا يملك حجراً
يسند اليه رأسه . غير انه لمجرد ما هو خفيد من حفدة اجدادنا
الاولين ، سيظل له حق بان يتملك وحده ، ساعة من الزمن كل

اسبوع ، جميع مياه النبع ، يغتسل بها واهله ويروي بها ما يستأجر
من ارض ، ويمتتع بصره برقراقها . ولعل هذه المساواة في الحقوق
حيال العرعار هي كل ما بقي لنا من عهد صبية الجن .

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

الرصد

قبل ان يتفرق الآلهة في الارض فكر بعلم كبيرهم ان
يدعوهم الى مأدبة يقيمها لهم في مغارة قاديشا .
وكان الليل الذي اختاره ليلاً صافياً نقياً من اعذب ليالي
لبنان . امر فيه الرياح ان تهدأ ، والبحر ان يسكن ، والهواء
ان يعتدل . في الهزيع الاول من ذلك الليل كانت اشباح جبارة
تتخطى رؤوس جبال الجرمق والريحان والباروك وصنين والعاقورة
والشيخ ، هابطة من فم الميزاب وضهر القضييب . تسير في مواكب
من العظماء والعظيمات على ضوء النيرات المدلاة لهم من اعالي
السماء .

فاذا بلغت المواكب الطريق المؤدية الى المغارة ارتفعت
النيرات عائدة الى سمائها ، وداس الآلهة طريقاً فرشها لمقدمهم الاله

الأكبر برمال من الذهب ، تؤدي بهم الى مغارة غطيت حيطانها
بالحرير الأرجواني ، وفرشت أرضها بالأخضر منه ، واضيئت جوانبها
بأشعة تنبعث من شموع لا تذوب ، كأنها من جوهر المس .
وزينت بمختلف أنواع الزهر الشدي النضير ، في سلال محبوكة
بالنور .

ودعي الآلهة الى مقاصف ارتفعت على أعمدة من الفضة ،
فوق مجرى النبع ، ووضعت من حولها الطنافس الناعمة النادرة .
وقدم الطعام الشهي ، وهو من خير ما عرفت الدنيا ، والفاكهة ،
وهي من ألد ما انبتت جنائن لبنان (والحجرة المعلقة منذ الأزل
في اقبية بعل ، أدارها عليهم في آنية من الأبريز مرصعة بالياقوت
والمرجان صبايا حبيات مجللات بالأبيض ، مؤثرات بالأرجوان ،
أرق اديماً واندى من وجه الفجر .

وكانت الراقصات ، في اثناء الطعام ، يقمن بأبرع ما علمهن بعل

مرقد من فنون تحار بها الالباب ، على اعذب واطرب انعام عرفتها
السما ومرت في اجواء الارض .

وما ان هم الآلهة بمغادرة المقاصف ، حتى وقف الاله
الاكبر فقال : لقد قسّمت بينكم الارض . وسيسافر غداً كل
واحد منكم الى حيث اعددت له العباد والهياكل .

ولكنه لا يصلح لنا جميعاً ان نتخلى عن حماية هذه الديار ،
اننى اقننا من الارض . فهي بلادنا الاصلية ونعيمنا الاول .
ترعرعنا في اكنافها ، وتظللنا سماءها ، وعيبتنا من انهارها وينابيعها ،
وغسل بجرها اقدامنا .

فانبرى ملكرت ، رب الحرب المنتصر واله البحر ،
فقال : سأظل احمي شواطئها وأرد عنها .

وقال مرقد : اجعل من مرابعها مراقص ومسارح للنعيم ،
واعلم ابناءها اصول الفن ، فلا يبذهم فيه احد .

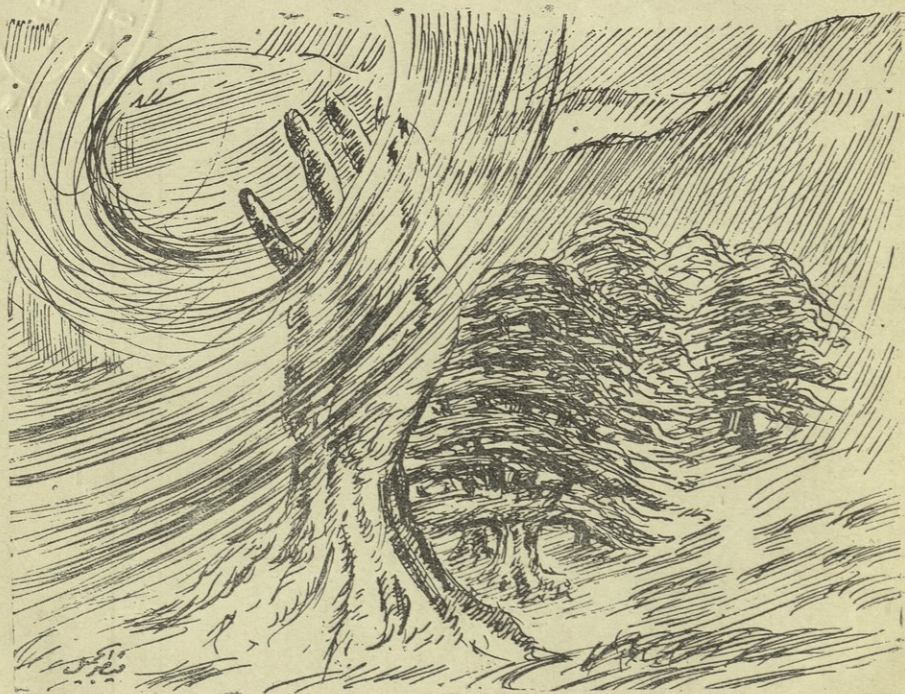
وقالت شيئا : امسح ابدأ وجهها بظل من جمال وجهي ،
فتكون انعم وأرق بقعة من الارض .
وقال انو اله السماء : اترك لون عيني في سهاها فتظل
زرقا ، صافية تلمع على آفاقها ابهى النيرات .
وقال انليل اله الارض : أخصب ارضها .
ووعدت مينرفا الالهة الحكمة ان تجعلها للفكر معقلا
وللحكمة مهذا .

واتفقوا جميعاً على ان يجود كل بما عنده من خير ومحبة وقوة
على لبنان ، ليظل ، مها تألبت عليه النوايب ، راسخاً ، عزيز
الجانب ، مرموقاً . لا يدخله فاتح الا ويخرج منه ذليلاً ، ولا يطمع
فيه طامع الا ويخيّب ، ولا تمتد يد اليه الا وتحرقها النار . ويظل
هو منبعاً دائم التدفق للجمال والحب ، يوزع منهما على الدنيا
ويخفف بهما الآلام التي كان يعرف الآلهة انها ستعصف بالخلقة .

ويظل اسمه حرباً على البشاعة حيثما عشت في الارض .
قال بعل : طيبة هذه العهود . ولكن لا بد لنا من ان
نترك رصداً في هذا الجبل ، ينبئنا بما فيه لنسارع الى نجده كما
هددته المخاطر ، وأحدثت به الرزايا . وخلق بنا ان نقيمه من
شيء لا يظن به ولا يتوجس منه المعتدون . وهذا الارز القائم
على مقربة منا في ظهر الراية ، من هاهنا ، حقيق بان يكون
هذا الرصد .

فصفق الآلهة استحساناً . وامتدت ايديهم الى جوف الارض
حتى امسكت يحدور الارز فباركتها . وانصرف الآلهة بعد ذلك
واطبقت الصخور على باب المغارة المقدسة .

وها ان الارز يقوم برسائله منذ آلاف السنين . فهو كلما
احدق خطر بلبنان ، تضطرب اغصانه الخالدة وتثور وتسمع
عزيفاً رائعاً ، فيتسارع الآلهة من اقاصي السماء والارض





يدفعون البلوى مهما طال امرها ، ويدحرون المقتال مهما عظم شأنه
وتفاقم خطرهم ، ويعيدون الطمأنينة الى الجبل ويوطدون السلام .

ما كان يلقى له من الشكر والثناء في حياته
فيما كان يلقى له من الشكر والثناء في حياته

بعل مرق

بعل مرقد زين شباب الاولب .

لها فما لها اله مثله .

علقتة الالهات فولهن ، حتى اغار الآلهة . بيد انه كان
يعشق من دونهن صورة لصبية تخيلها ابهى واجمل وانعم من
اجملهن واروعهن بها .

ذلك سره المكنون ، سر كان يترك على جبينه مسحة
كآبة وفي عينيه اطيافاً واحلاماً .

وبعد ان ادار بعل الكبير الكون ، راح بعل مرقد
يتعرف الى وجوه الاحياء والنبات والجماد ، لعله يجد للصورة
الحبيبة في المخلوقات شبيهاً .

يضرب كفاً في السفوح فيفجر الينابيع .

ويشير بيده الى التراب صعوداً فتنبثق الاشجار .
ويرنم ، فيكرّر من كل افق بلبل جديد ييسط على الريح
جناحاً رشيقاً ، ويرسل في الاجواء اغنية واجدة .
وتسلي الاله طويلاً وعبثاً .

وبينا هو يطوف ذات يوم في جبال لبنان بلغ مكاناً عرف
في ما بعد بهضبة بعل مرقد ، فاعجب به : تلة تنهض كالشمخ
الغض وكالنهد المتكبر ، تدور حولها الاوداء ، وترمقها قمم
صنين والكنيسة ، ويرنو لها المتوسط بألف عين متألقة ،
وتنسكب عليها الاضواء من اغوار السماء البعيدة .
ونظر ، فاذا الارض هنالك تنكشف عن صخر تغلغل
في حناياه الوان الوزال والشقائق والحشخاش ، وبقيت فيه على
بهائها تعبث بكف الزمن الماحية .
فاخذ ازميلاً وراح ينحت .

ينحت ليل نهار ، يحدوه الشوق ، ويستحثه الامل .

فينقلت الحجر .

ثم يتكور الحجر .

ثم يشرق الشكل العجيب الفريد .

ويخرّ بعْل امام الصورة الحبيبة المحققة في الحجر الابكم .

هوذا المعبود ينقطع ، والاجيال تنهض وتنهار ، على معبود

من نسج خياله ومن صنع يديه . فتعرف السموات حباً لم تشهد

من قبل له نظيراً . ان كواكب لبنان وتراب التلة المقدسة

تستطيع وحدها ان تقول لنا كم ذرف بعْل مرقد من دموع ،

وكم مرغ على قدمي تمثاله جبينه العالي ، وكم قضى من الازمان

يُنَاجِيهِ ويسترقه . وان الحجارة هنالك والادغال تهمس في اذني

من يسمع : ان العذب الحار من لغة الحب اصداً باردة

لاحاديثه ، وان الصلاة ذكريات من نجواه .

وبينما هو يوماً في غمرة من الهوى والالم ، اذا بالتمثال
يرتعش ، وينقل في الارض رجلاً ، ويتمايل بين يديه اخف
من النسيم .

مر على الاولمب فترة كان خبر الشوق الخالق فيه حديث
الآلهة . ومر على بعل مرقد ولبنانة عهد نشوة ومرح يعجز
الوصف .

ولكن المأساة ، مأساة الالم والشقاء ، كانت قد بدأت ساعة
صار الحجر انساناً ولم يستطع ان يصير الهاً .

لم يهون على لبنانة حب بعل ولا الاعراس التي اقيمت لها
وضجت بها مشارق الدنيا ومغاريها .

ولا روح عنها ان الغوالي المخبات في اقاصي السماء ، في
مقاصير الشمس ومغاني القمر ، كانت تسفح كل يوم على قدميهما .
ولا اسلاها وانساها ان الانعام كانت ترتفع بالتسابيح لها .

كما أطل وجهها السني على الدنيا .
ولا قلل من همها ان الالهات كنَّ يحسدنها ، ويتمنين
ان يحتلن من قلب بعل الجميل بعض مكانها فيه .
فقد كانت لبنانة تشعر في اعماقها ان ذل الحجر ما يزال
عالقاً بها ، يشدها الى الارض حين تريد ان ترتفع ، وانها
سجينة هذا الشكل الرائع المحسود لا تستطيع براحاً ولا انفلتاً
ولا هي تعرف هل تظل هي اياها ، ولا ما سيكون مصير ما
تستشعر بذاتها من عقل واحساس وشوق ولذة ولم اذا ما
قدرت على الانعتاق .

وكانت تعرف ان بقاءها موقوف على انها تأكل وتشرب
وتنام ، وتعرف ان لا حاجة للالهات من اجل البقاء الى
النوم ولا الى الطعام ولا الى الشراب ، وانهن انما يأكلن
ويشربن وينمن ، متعة منهن ولذة ، وانهن لا يخفن لوافح البرد

ولا لواذع الحر .

وتعرف انها لا تعرف كيف تأتيها هذه المعرفة .
وكانت بسبب ذلك كله شقية تتساءل أهى اليوم افضل
حالا ، ام كانت افضل حالا قبل ان يجر كها الشوق ، يوم هي
حجر لا يعقل ولا يحس ، ولا ينعم ولا يشقى ، ولا يفكر
بمسير ، ولا يدرك انه موجود .

لا ، لن يقول لنا احد شيئا عن الجهد الجبار الذي كان يقوم
به بعل ليزيل من خاطر لبنانة هذه الهواجس ، وليجعل من حياتها
نعيماً . ان شوقه هو الذي خلق مع الحياة هذه المتاعب عند
احب مخلوقة يطمئن اليها قلبه ، وتقر بها عيناه .

فيا لعظم التبعات التي هي تبعاته !

غير ان لبنانة كانت تدرك من ناحيتها ان بعل لن يستطيع
من اجلها بعد شيئا ، وان خلاصها غير منوط به ، وان الشوق ،

شوقها هي هذه المرة ، شوقها الى الانعتاق والانفلات ، يقدر
وحده على شق طريق الخلاص .

وذات ليلة وبعل يعزف ويغني لها اغنية الحب الخالد ، قامت
الى رأس التلة واخذت تحتطف الخطو اختطافاً ، فلا تلمس قدمها
الارض الا لمساً رقيقاً كأنما هي تتوكل على جناحي النعم .
واقبل الكون ينظر :

الدراري تتدلى لترى هذه الاعجوبة ،
والجبال تقترب وتحنو ،
والاغصان تترنج وتنعطف ،
والبحر يصغي خافت الموج ،
والسهل يشرب ،
والليل يرق ،
وبنات لبنان وفتيانه يتقاطرون من الجوار في خشوع ورهبة

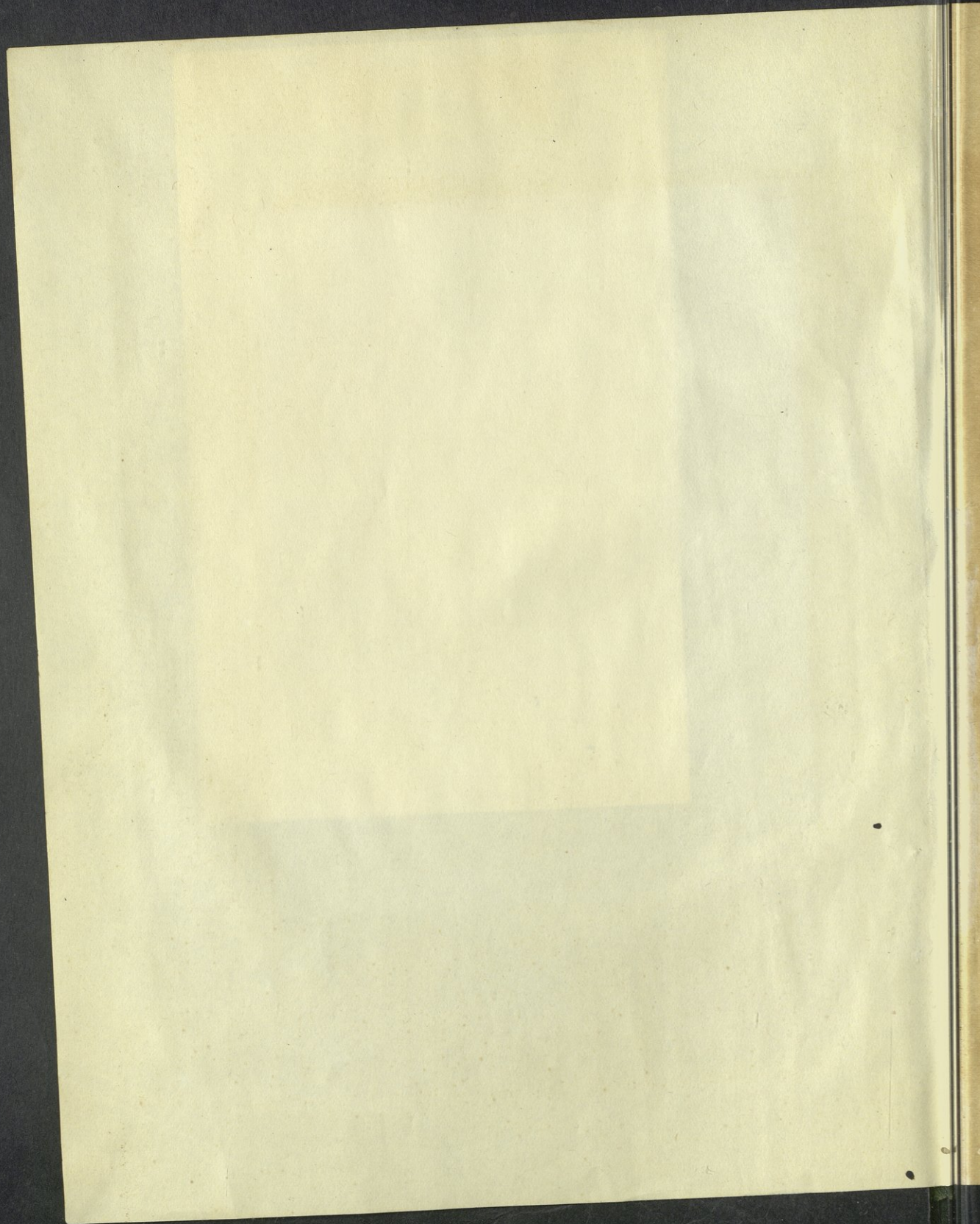
ونشوة وحنين .

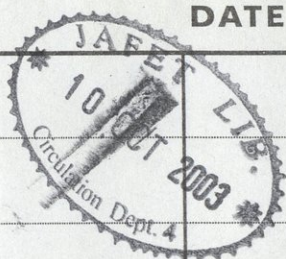
وظلت لبنانة ترقص وترتفع ، ثم تهبط راقصة وترتفع ثانية ،
حتى أقبل الفجر عليها وهي خُصلة من نور ، تتعالى مسرعة الى ما
وراء النجوم ، وبعل مرقد في اثرها يعزف ويغني ويرتفع .
وشيدت بنات لبنان بايديهن الناعمات القويات السخيات
هيكلاً جباراً فوق التلة المقدسة ، اخذن حجارته من المقلع الذي
نحت منه بعل تمثال لبنانة ، يعبدنه فيه ويعبدنها .

فهرس

صفحة	
٧	مقدمة
١٧	النغم التائه
٢٧	طليق وسجين
٣٧	الشاعر والشيطان
٥٣	ملكوت
٦٥	الكلب المجنح
٨١	العرعار
٩٣	الرصد
١٠٣	بعل مرقد

اتهى طبع هذا الكتاب على
مطابع الاتحاد ، بيروت
في اول آب ١٩٤٥ .



[illegible]

398.2:L11mA:c.1

ليكو، صلاح

من اعماق الجبل

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01024220

American University of Beirut



398.2

L11mA

General Library

398.2
L11mA
c.1